مناقضات كعب بن مالك الأنصارى
دلالتها الشعرية وأصداء الوازع الإسلامى فيها

دكتورة
آمال كمال ضرار محمد على

يجدر بنا فى البداية أن نتعرف على نسب كعب وحياته ونشأته.

وإذا تكلمنا عن نسب كعب فإننا نجد أن المصادر قالت:

هو كعب بن مالك بن أبى كعب الأنصارى الخزرجى لقب بالأنصارى نسبة إلى الأنصار وبالخزرجى نسبة إلى الخروج ومما تجدر الإشارة إليه فى ذلك أن المصادر اختلفت فى ذكر نسبه فمنهم من اختصر ومنهم من بسط القول فيه فمنها من قالت هو كعب بن مالك بن أبى كعب عمرو بن القين»[١] وزادت بعض المصادر على ذلك فقالت بن كعب بن سواد[٢] وبعض المصادر أضافت إلى ذلك بن أسد بن سارده[٣] أما صاحب الأغانى فزاد على ذلك بن يزيد بن جشم ابن الخزرج بن حارثه بن ثعلبه بن عمرو بن حارثه ابن امرئ القيس بن ثعلبه ابن مازن بن الأزد بن الغوث[٤] أما صاحب الكامل فقد وصل فى نسبه إلى قحطان فقال مزيداً على ما سبق: بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان»[٥].

وكما اختلف المؤرخون فى نسب كعب اختلفوا كذلك فى كنيته فمنهم قال أن كنيته عبد اللّه[٦] ومنهم من جعل له كنيتين أبو عبد الله

---

(١) التحفة اللطيفة فى تاريخ المدينة الشريفة للسخاوى نشر أسعد طرابذونى ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م جـ ٣ ص ٤٣٥.

(٢) الاستبصار فى نسب الصحابة من الأنصار موفق الدين المقدسى دار الفكر ١٣٩١هـ - ١٩٧١م ص ١٦٠.

(٣) جمهرة أنساب العرب لابن حزم الأندلسى طبعة دار المعارف ص ٣٤١.

(٤) الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى جـ ١٦ ص ٢٢٦ طبعة دار الكتب.

(٥) الكامل فى التاريخ لابن الأثير جـ ١ ص ٤٠٠ دار الكتاب العربى ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م.

(٦) الجرح والتعديل لابن حاتم الرازى جـ ٧ ص ١٦٠ طبعه حيدر آباد الركن ١٣٧١هـ - ١٩٥٢م ومعجم الشعراء للمرزبانى ص ٣٤٢ مكتبة القدسى والاستبصار فى نسب =

وأبو عبد الرحمن[١] ومن العلماء[٢] من جعل له أربع كنى زيادة على ما سبق قالوا أبو محمد وأبو بشير أما صاحب الإصابة فقد ذكر له كنية ثم ذكر أن الرسول ﷺ غيرها إلى كنية أخرى فقال: كانت كنية كعب بن مالك فى الجاهلية أبا بشير فكناه النبى صلى الله عليه وسلم أبا عبد الله.

واختلفوا كذلك فى الألقاب التى عرف بها فبعض التراجم جعلت لقبه السلمى وبعضها جعلته الأنصارى السلمى وبعضها الأنصارى الخزرجى.

ومن خلال هذه الكتب التى ترجمت لكعب نرى أنهم اتفقوا على اسمه وعلى كنيتين من كناه وعلى ثلاثة ألقاب من الألقاب التى نسبت إليه وإذا كانت هناك بعض المصادر التى زادت فى كناه وألقابه فإن هذه الزيادات مطابقة لما جاء فى ترجمات كعب أما العلماء الذين اختصروا فى هذه الكنى والألقاب[٣] فإنهم اعتمدوا على الأشهر والأعم منها.

أما عن مولده ونشأته:

فلم تحدد المصادر السنة التى ولد فيها ولكن ذكرت سنة وفاته وهى

= الصحابة من الأنصار لموفق الدين المقدسى دار الفكر ١٣٩١هـ - ١٩٧١م ص ١٦٠ وخلاصة تذهيب تهذيب الكمال فى أسماء الرجال الأنصارى ص ٣٢١ طبعة بولاق ١٣٠١هـ.

(١) أنظر الاستيعاب جـ ٣ ص ٢٨٦ لابن عبد البر طبعة السعادة ١٣٢٨هـ وأسد الغابة فى معرفة الصحابه لابن الأثير المكتبة الإسلامية بطهران وانظر التحفة اللطيفه جـ ٣ ص ٤٣٥ وشرح شواهد المغنى للسيوطى طبعة لجنة التراث.

(٢) تهذيب الأسماء واللغات للنووى ص ٩٢ دار الكتب العلميه بيروت - لبنان وانظر تحفة الأشراف للحافظ المذى ص ٣٠٩ وانظر تهذيب التهديب لابن حجر جـ ٨ ص ٤٤٠ حيدر آباد الركن ١٣٢٥هـ.

(٣) الإصابه فى تمييز الصحابه من ص ٦١٨٩، ٧٤٣٣ لابن حجر طبعة السعادة ١٣٢٨هـ.

٥٠ هجرية..... ثم قالت..... عمى فى آخر عمره وعاش سبعاً وسبعين سنة[١] «ونستنتج من ذلك أنه ولد قبل الهجرة بسبع وعشرين سنة أى أن ميلاده كأن سنة سبع وعشرين قبل الهجرة»[٢] وأن مكان ولادته كان فى المدينة وقد ذكر الدكتور عمر فروخ أن ميلاده كان عام ٢٥. ق.هـ ٥٩٨م ولكننى أرى أن ميلاده إذا قيس بسنه عند الوفاة يكون ميلاده قبل الهجرة بـ ٢٧ عاماً.

وعن نشأته:

ذكرت المصادر[٣] التى ترجمت لكعب أن نشأته - [illegible] خلال أسرة اشتهرت بالشعر ومن هنا فقد كانت نشأة كعب فى بيت شعر فأبوه مالك بن أبى كعب القينى شاعر وعمه قيس بن أبى كعب شاعر، وابنه عبد الرحمن شاعر وابن ابنه بشير بن عبد الرحمن شاعر، وقد استمر الشعر فى أبناء أبنائه لأمد بعيد، وأولاده رووا الحديث منهم: عبد الله، وعبيد الله، وعبد الرحمن، ومحمد وكبشة ومعبد وقد وثقهم جميعاً علماء الحديث وقد ذكرت المصادر أن كعبا تزوج ما يقرب من ست زوجات وأنجب تسع ذكور وثلاث إناث من زوجاته الست ولعل هذا هو السر فى تعدد الكنى التى كنى بها تبعاً لأسماء أولاده ومما تجدر الإشارة إليه أن أكبر أولاد كعب «عبد الله» وبه كناه النبي صلى الله عليه وسلم[٤] وكان قائد أبيه حين عمي وقد إمتد بعبد

---

(١) الأعلام للزركلى جـ ٥ ص ٢٢٨ الطبعة الثالثة.
وأنظر شذرات الذهب فى أخبار من ذهب لابن العماد الخبلى بيروت الاستيعاب جـ ٣ ص ٢٨٦.

(٢) تاريخ الأدب العربى جـ ١ ص ٣٢٣ عمر فروخ دار العلم للملايين - بيروت - الطبعة السادسة ١٩٩٢م.

(٣) انظر الاستيعاب جـ ٣ ص ٢٨٦ وأسد الغابة جـ ٤ ص ٢٤٧ ونكت الهيان ص ٢٣١ والأغانى جـ ١٦ ص ٢٢٦ طبعة دار الكتب.

(٤) الطبقات الكبرى بن سعد جـ ٨ ص ٤٠٦: ٤٧٨ دار بيروت للطباعة والنشر =

الله الأجل فكان أخر من مات من ولد كعب[١]. أما أصغر أولاده فهو معبد[٢] وذكرت بعض المصادر أسماء لأحفاد كعب شاعرين هما عمرو بن عبد الله والضحاك بن معن»[٣].

وإذا تكلمنا عن قصة إسلامه

كان كعب من أوائل أهل المدينة الذين دخلوا فى الإسلام وذلك قبل هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم إليها وهو ممن شهدوا العقبة الثانية حيث توجه مع طلائع المسلمين الأوائل فى المدينة إلى مكة وبايعوا الرسول على الإسلام والإيواء والنصر ولقد صلى كعب مع الرسول أول جمعة فى المدينة قبل هجرته إليها[٤] وبعد بيعة العقبة الثانية يعود كعب وقومه إلى المدينة ثم يهاجر إليها الرسول بعد ذلك ويؤاخى بين المهاجرين والأنصار ويكون كعب من الأنصار الذين شملتهم المؤاخاة وقد بدأت صحبة كعب لسيدنا رسول الله من تاريخ بيعة العقبة الثانية[٥] ولم يلبث كعب أن أصبح أحد شعراء رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا ريب فى ذلك فهو «شاعر الرسول وأحد الثلاثة

= ١٣٨٨هـ سنه ١٩٦٨م.

(١) الإصابة ص ٦١٨٩ لابن حجر السعادة ١٣٢٨هـ.

(٢) تهذيب التهذيب جـ ١ ص ٢٢٤ لابن حجر طبعة حيدر أباد الركن ١٣٧١هـ - ١٩٥٢م.

(٣) عيار الشعر لابن طباطبا ص ١٠٢ تحقيق الحاجرى وسلام طبعة القاهرة ١٩٥٦م. والموشح للمرزباتى ص ٢٩ المطبعة السلفيه ١٣٤٨هـ وجمرة أنساب العرب لابن حزم الأندلسى ص ٣٦٠ طبعة دار المعارف.

(٤) الروض الأنف. دار الكتب المصرية بمصر ١٩٦٩م جـ ٤ ص ٩٨ - ١٠٢ والسيرة النبويه لابن هشام جـ ٢ ص ٥٨ دار الجبل بيروت ١٩٧٥م.

(٥) انظر سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٦١ - ٦٨.

الذين خلفوا فتاب الله عليهم»[١].

وكعب من الشعراء الذين ناصروا الرسول صلى الله عليه وسلم بسيوفهم وألسنتهم فبجانب محاربته لأعداء الله بلسانه والدفاع عن الاسلام بشعره جاهد بسيفه في كثير من المعارك والغزوات حتى شهد له الرسول بقوله «أنت تحسن صنعة الحرب» ويقال أنه شهد أكثر المشاهد ولم يتخلف إلا عن غزوة تبوك هو وصاحباه والمنافقون والضعفاء وبعد أن عاد الرسول صلى الله عليه وسلم جاءه المخلفون واعتذروا وحلفوا وكانوا بضعة وثمانين رجلاً فقبل منهم الرسول وبايعهم واستغفر لهم ووكل أمرهم إلى الله لكن كعب أتى النبى بعد المتخلفين وأقر بذنبه واعترف أنه لا عذر له وقال فيما قال: «والله لقد علمت لأن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عنى ليوشكن الله أن يسخطك علىّ ولأن حدثتك حديث صدق نجد على فيه. إنى لأرجو فيه عفو الله، والله ما كان لى من عذر، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم. أما هذا فقد صدق فقم حتى يقضى الله فيك..»[٢] وكان صحابيان قد تخلفا وأقرا بذنبيهما أمام الرسول مثلما فعل كعب فنهى الرسول الصحابة عن كلام الثلاثة فاجتنبهم الناس حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت فلبثوا على ذلك خمسين ليلة. وفى أثناء هذه

(١) سير أعلام النبلاء للذهبى جـ ٢ ص ٥٢٣ إشراف شعب الأرنؤوط مؤسسة الرسالة بيروت ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

(٢) فضائل الصحابه لأحمد بن حنبل جـ ٢ ص ٩٢٣ مؤسسة الرسالة وانظر الدرر فى اختصار المغازى والسير لابن عبد البر ص ٧٤: ٧٧ طبعة القاهرة ١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م. ومسند الامام أحمد جـ ٣ ص ٤٦٠ - ٤٦٢ المطبعة الميمنية مصر ١٣١٣هـ. وتاريخ الطبرى جـ ٢ ص ٣٦٠ - ٣٦٥ دار سويدان بيروت مكتبة خياط بيروت وجوامع السيرة لابن حزم ص ٨٢ تحقيق إحسان عباس وناصر الدين الأسد وانظر تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام جـ ٢ ص ٢٠٣ تحقيق حسام الدين المقدسى.

الفترة حمل نبطى من أهل الشام كتاباً إلى كعب من ملك الغساسنه يدعوه إليه للإقامة فما كان من كعب إلا أن ألقى الرسالة فى النار[1].... وبعد مضى ما يقرب من أربعين ليلة يرسل الرسول إلى كعب وإلى صاحبيه يطلب منهما اعتزال زوجاتهما. وبعد خمسين ليلة يأتى أمر الله من السماء أنه قد تاب على المخلفين وبشره الصحابة بنزول الوحى على رسول الله فى حقهما فقد نزل قوله تعالى «لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رؤوف رحيم وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم: يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين»

صدق الله العظيم

ومن قصة تخلفه يظهر إيمانه العميق وإسلامه الكامل فقد آثر الصدق فنجاه الله وقبل توبته كما ظهرت قوة إيمانه فى تمسكه بإسلامه والمسلمون جميعاً من حوله يقاطعونه ورغم أن الأرض قد ضاقت عليه بما رحبت فلم يخضع لإغراء ملك الغساسنة ورفض عرضه الذى أرسل به مفضلاً الهم والحزن مع نعمة الاسلام على نعيم قصور الغساسنة مع الكفر.

لقد كان كعب فى ذلك يهتم بأن يلبى جميع أوامر الرسول لعله يستغفر له حتى لا يلقى حتفه وهو غاضب عليه ولا يصلى عليه أحد من المسلمين لذلك عندما بشر الصحابه كعباً أن الوحى نزل على الرسول بقبول توبته فرح فرحاً شديداً وأقبل يقبل يد الرسول الكريم وقال للرسول برغبته فى التبرع

(١) دراسات فى نصوص العصر الإسلامى ص ١٨٦ للدكتور محمد عبد القادر أحمد الطبعة الأولى سنه ١٤٠٥هـ سنه ١٩٨٦م مكتبة النهضة المصرية.

بجميع ماله ولكن الرسول أمره أن يمسك عليه ماله فهو خير له[١].

ومما تجدر الإشارة إليه فى هذا الإطار أن كل هذه الغزوات التى شهدها كعب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كما كانت معارك تتخللها السيوف والرماح فكذلك تخللتها المعارك الكلامية التى استخدم فيها الشعراء الشعر والبيان فاندفع من جانب المشركين شعراء منهم «عبد الله بن الزبعرى» و«ضرار بن الخطاب» وأبو سفيان بن الحارث ولقد كان الهدف من شعرهم هو إيذاء الدعوة الإسلامية وقائدها وأنصارها.

وكان على الرسول أن يجند من المسلمين شعراء يقومون بالرد على هؤلاء فقال صلى الله عليه وسلم: «ما يمنع القوم الذين نصروا الرسول بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم[٢].

وهنا تقدم إلى ميدان القتال الكلامى ثلاثة من الأنصار وهم حسان بن ثابت الأنصارى، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة «فكان حسان وكعب يعارضانهم بمثل قولهم بالوقائع والأيام والمآثر ويعيرانهم بالمثالب وكان عبد الله بن رواحة يعيرهم بالكفر. يروى أبو الفرج الأصفهانى قال... فكان فى ذلك الزمان أشد القول عليهم قول حسان وكعب وأهون القول عليهم قول ابن رواحة»[٣] ويذكر قدامة[٤] أن هؤلاء الشعراء الثلاثة هم الذين استثناهم الله فى قوله تعالى: «والشعراء يتبعهم الغاوون، ألم تر أنهم فى كل

(١) أنظر دراسات فى أدب ونصوص العصر الإسلامى ص ١٨٦ بتصرف.
(٢) الأغانى للأصفهانى جـ ٤ ص ١٣٨.
(٣) نفسه.
(٤) نقد النثر لابن قدامه ص ٢٢٧.

واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون؟ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظلموا».

وكثير من المصادر تذكر أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يحث الشعراء المسلمين على إنشاد الشعر ليدافعوا عن الرسول والدعوة الإسلامية... ومن هنا كانت نشأة المناقضات.

ولكن قبل أن نتحدث عن النقائض يجدر بنا أن نتحدث عن ملامح شخصية كعب بن مالك باعتباره هو الشاعر الذى نبحث فيه.

ملامح شخصيته

يبدو من التراجم التى ترجمها العلماء لكعب بن مالك الأنصارى أن له مميزات فى شخصيته ما بين خلقية وخلقية فإذا بدأنا بالحديث عن ملامح شخصيته الخلقية فإننا نجد أن أول ما يطالعنا فى هذا الإطار إتصافه. بما يلى:

(١) الايمان الصادق بالله واليقين العميق بنبوة الرسول صلى الله عليه وسلم مع القدرة الفائقة على الصبر على النوائب

ويتضح ذلك فى كونه من السابقين فى الدخول للإسلام وللمؤيدين لدعوة الرسول الكريم وليس أدل على ذلك من أنه كان فى الثلة التى شهدت بيعة العقبة، ومن أول الأنصار الذين استجابوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقد قال الرسول الكريم فيه «أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضى الله فيك»[١] ذلكم هو كعب بن مالك الأنصارى كما اتضح إيمانه الصادق عندما

(١) صحيح البخارى جـ ٥ ص ١٣٤ المكتبة الإسلامية باستانبول ١٣١٥هـ/ ١٨٩٧م توزيع مكتبة العلم جده ١٤٠٢هـ/ ١٩٨١م.

تقبل حكم رسول الله عندما أعلن مقاطعة المسلمين له وقصة ذلك يرويها كعب بن مالك[١]. بقوله:

«لم أتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة غزاها قط إلا فى غزوة تبوك ثم يذكر القصة كاملة ويتضح لنا من خلال هذه القصة عمق إيمان كعب الذى ظهر فى طاعته لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم والصبر على المحنة التى ألمت به وثقته فى النصر من عند الله وذلك لصدقه مع الله عز وجل واعترافه إن أعظم نعمة أنعم الله بها عليه بعد نعمة الإسلام هو تصديق رسول الله له.

(٢) الذكاء واللياقة وحسن التصرف:

تؤكد الأحاديث والأخبار أن كعباً استطاع بذكائه وحسن تصرفه أن يزداد قرباً من الرسول ويجعله يهتم به ويظهر ذلك فى تغييره صلى الله عليه وسلم لكنيته بعد أن كان أبو بشير فى الجاهلية أصبح أبو عبد الله فى الإسلام. ومن مظاهر إهتمام الرسول الكريم به ما وجه من نصيحة له عليه السلام عندما أراد كعب أن يتزوج يهودية فقال له صلى الله عليه وسلم «لا تتزوجها، فإنها لا تحصنك»[٢]. ومن مظاهر ذلك أيضاً فى تصرفه عندما تخلف عن تبوك وذهب للرسول يوضح موقفه بصدق وأمانة مما جعل الرسول يستغفر له.

---

(١) فتح البارى بشرح صحيح البخارى لابن حجر باب حديث كعب بن مالك المكتبة السلفية ١٣٨٠هـ.
صحيح مسلم باب التوبه حديث كعب بن مالك دار إحياء التراث العربى.

(٢) تحفة الأشراف بمعرفة الأطراف مع النكت الظراف ص ٣٢٤ الحديث ١١١٦١ للحافظ المزى تعليقات ابن حجر.

ومما لا شك فيه أن ذلك كله يؤكد ذكاءه ولباقته.

(٣) ثقافته وسرعة بديهته:

ونظر لما تمتع به كعب من ثقافة نادرة بمقياس عصره فإن الرسول الكريم وكل إليه أموراً عديده منها:

(أ) إرساله لتخطيط حدود حرم المدينة وفى ذلك يقول كعب: «بعثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم، أعلم على أشراف مخيض وعلى الحفيا، وعلى ذى العشيرة، وعلى تيم»[١] ومما يدل على ثقافته.

(ب) قول الإمام أحمد بن حنبل فى كتابه فضائل الصحابة «وكان كعب من أعلم الأنصار، ممن شهد العقبه، وبايع رسول الله صلى الله عليه وسلم»[٢].

(٤) الشجاعة والإقدام والفروسية فى ميدان القتال:

لقد اتضح ذلك فى اختيار رسول الله صلى الله عليه وسلم له ليبادله درعه (لأمته) يوم أحد فى أصعب أوقات القتال فيلبس النبى صلى الله عليه وسلم لأمة كعب ويلبس كعب لأمة النبى ويفرح كعب بذلك فيندفع فى لأمة النبى صلى الله عليه وسلم يقاتل قتالاً شديداً ويتعرض لوابل من سهام الأعداء ويجرح سبعة عشر جرحاً[٣]. ويقول صاحب الأغانى «لم يكن كعبٌ كصاحبه حسان بن ثابت يشارك المسلمين باللسان ثم إذا قامت الحرب إلتجأ إلى أطمة

(١) هى أماكن فى المدينة أنظر مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشده جـ ١ ألف دار الإرشاد بيروت.

(٢) فضائل الصحابة للإمام أحمد بن حنبل ص ١٧٦٧ مؤسسة الرسالة.

(٣) الاستيعاب فى معرفة الأصحاب جـ ١ ص ٢٢٣ لابن عبد البر مطبعة السعادة ١٣٢٨هـ.

فارع مع الصبيان والنسوة بل كان شجاعا مقداما يقرن القول بالفعل».

(٥) إحاطته بالأمور الدينية والأحكام الشرعية:

وقد اتضح ذلك من خلال روايات عديدة منها.

تؤكد الأخبار توليته صدقات أسلم وغفار فى السنة التاسعة للهجرة وذهب البلاذرى إلى أنه ولاه صدقات جهينة أيضا»[١] ويروى كذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم عهد إليه أن ينادى فى حجة الوداع بمنى فى الناس: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إن أيام منى أيام أكل وشرب وذكر لله»[٢].

(٦) حسن التقدير للأمور ووفائه لأصدقائه وإنصافه للحق:

والأخبار والروايات تؤكد ذلك ومنها ما رواه ابن سعد بن خارجه بن عبد الله بن كعب، قال: «قدم وفد بنى كلاب فى سنه تسع على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم ثلاثة عشر رجلا فيهم لبيد بن ربيعة وجبار بن سلمى، فأنزلهم دار ملة بنت الحارث وكان بين جبار وكعب بن مالك خلة أى صداقة فبلغ كعبا قدومهم فرحب بهم وأهدى لجبار وأكرمه وخرجوا مع كعب فدخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلموا عليه بسلام الإسلام»[٣].

---

(١) مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشده جـ ١ ألف .

(٢) صحيح مسلم الحديث ١١٤٢ دار إحياء التراث العربى بيروت - لبنان مسند الإمام أحمد بن حنبل جـ ٣ ص ٤٦٠ المطبعة الميمنية بمصر ١٣١٣هـ إمتاع الأسماع للمقريزى جـ ١ ص ٥٢٧ لجنة التأليف والترجمة والنشر.

(٣) الطبقات الكبرى جـ ١ ص ٣٠٠ لابن سعد دار بيروت للطباعة والنشر ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م.

ومن الروايات التى تؤكد وفاءه لأصدقائه أنه كان دائم الاستغفار والدعاء لأسعد بن زراره كلما سمع آذان الجمعة، لأن أسعد أول من أقام صلاة الجمعة فى المدينة وقد ذكر ذلك صاحب السيرة فيما يرويه عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك قال: «كنت قائد أبى كعب بن مالك، حين ذهب بصره، فكنت إذا خرجت به إلى الجمعة فسمع الأذان بها صلى على أبى أمامة أسعد بن زرارة؟ فمكث حينا على ذلك لا يسمع الاذان للجمعة إلا صلى عليه واستغفر له فقلت له: يا أبت، مالك إذا سمعت الأذان للجمعة صليت على أبى أمامه؟ فقال: أى بنى كان أول من جمع بنا بالمدينة فى هزم البيت من حره بنى بياضة يقال له: نقبع الخضمان قلت وكم أنتم يومئذ؟ قال: أربعون رجلا»[1] فالروايات تؤكد وفاءه لأصدقائه وحسن تقديره للأمور.

ويظهر حسن تقديره للأمور فى غزوة خيبر حينما جاءه رجل من اليهود قدم إلى معسكر المسلمين، ينادى طالبا الأمان، فلم يدخله كعب إلى المعسكر إلا بعد أن سأله عن اسمه وتيقن من حقيقته وماذا يريد»[2].

(٧) الحكمه والرزانة والاستعانة بالكتمان فى قضاء الحوائج:

ولقد ظهرت حكمته فى قصة إسلام عبد الله بن عمرو بن حرام، أبو جابر وهو سيد من سادات الأنصار وشريف من أشرافهم ويقول كعب أن الرهط المسلم من الأنصار أخذوا عبد الله بن عمرو بن حرام إلى الموعد السرى المضروب مع النبى صلى الله عليه وسلم فى غفلة من عيون قومهم المشركين، فقالوا له: «يا أبا جابر، إنك سيد من ساداتنا وشريف من أشرافنا،

(١) السيرة جـ ٢ ص ٥٨.
(٢) المغازى جـ ٢ ص ٦٤٦، ٦٤٧ للواقدى طبعة عالم الكتب بيروت.

وإنا نرغب بك عما أنت فيه أن تكون حطباً للنار غدا» ثم دعوه للإسلام وأخبروه بميعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم، إياهم العقبة فلان قلبه وأسلم وشهد العقبة وكان من النقباء»[١].

فقد ظهرت حكمته فى كتمان أمرهم عن قومهم الكفار وقد اتضح ذلك أيضاً فى معالجة نفس عمرو بن حرام بالأقوال اللينة التى كان لها تأثير نفسى عليه مما جعل صدره يشرح للإسلام ويشهد معهم بيعة العقبة.

(٨) سماحة النفس وحريصه على الامتثال لأوامر الرسول الكريم:

ويبدو كرمه فى قصه الدين الذى كان على عبد الله بن أبى حدرد الأسلمى ويروى هذه القصة عبد الله بن كعب عن أبيه أنه كان لكعب دين على عبد الله بن أبى حدرد الأسلمى فلقيه كعب فى المسجد فتقاضاه دينه، وارتفعت أصواتهما حتى سمعها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فى بيته فخرج إليهما ونادى كعب بن مالك فقال: «لبيك يا رسول الله» فأشار إليه بيده أن ضع الشطر من دَيْنكِ قال كعب: «قد فعلت يا رسول الله»[٢].

مما لا شك فيه أن تنازل كعب عن نصف دينه يدل على سماحة نفسه وحرصه على الامتثال لأوامر الرسول الكريم.

(٩) يتميز بالفصاحة والبلاغة والقدرة الفائقة على الجدال والمناقضة:

ولقد اعترف هو بذلك حين سأله الرسول عن سبب تخلفه فقال «إنى والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن سأخرج من سخطه بعذر

(١) السيرة جـ ٢ ص ٦٣.
(٢) صحيح مسلم رقم الحديث ١٥٥٨ دار إحياء التراث العربى مسند الإمام أحمد جـ ١ ص ٤٦٠.

ولقد أعطيت جدلا[١]. ويظهر ذلك كذلك حين سأله رسول الله صلى الله عليه وسلم «أنت الذى تقول: همت سخينة أن تغالب ربها وليغلبن مغالب الغلاب فقال نعم يا رسول الله فقال الرسول صلى الله عليه وسلم «أما إن الله لم ينس ذلك لك»[٢].

(١٠) **شدة وفائه للرسول صلى الله عليه وسلم مع قدرته الفائقة على ارتجال الشعر:**

ويدل على ذلك ما روته المصادر أن النبى صلى الله عليه وسلم كان فى مسيرة له، فقال لسلمة بن الأكوع: «ألا تنزل فتقول من هناتك أى من كلماتك وأراجيزك فنزل سلمه يرتجز ويقول:

لم يغذها مد، ولا نصيف ولا تميرات، ولا رغيف
لكن غذاها اللبن الخريف والمحض والقارص والصريف[٣]

فلما سمعته الأنصار يذكر التميرات والرغيف علموا أنه يعرض بهم فقالوا: يا كعب انزل فأجبه فنزل كعب يرتجز ويقول:

لم يغذها مد، ولا نصيف لكن غذاها الحنظل النقيف[٤]
ومذقه كطرة الخنيف تبيت بين الذرب والكنيف

(١) حديث توبته فى صحيح مسلم ، وصحيح البخارى – دار الطباعة العامرة.
(٢) معجم الشعراء للمرزبانى ص ٢٢٩ طبعة عبد الستار أحمد فراج.
(٣) الفائق فى غريب الحديث (للزمخشرى طبعة البابى الحلبى والأغانى جـ ١٦ ص ١٦٧ طبعة دار الثقافة).
المد والنصيف ضربان من المكاييل، الخريف – لبن الخريف هو أدسم، والمحض من اللبن أى الذى لم يخلط بالماء، والقارص الذى يقرص اللسان لفرط حموضته، الصريف أى الحار الذى يخرج من الضرع حاراً.
(٤) والحنظل هو الشجر المر، والنقيف من شجر الحنظل وكانت قريش وثقيفه تتخذ من الحنظل أطبخه معيرهم بذلك (المذقة) أى شربه من اللبن المخلوط – شبه شربة اللبن المخلوط بحاشية الكتان الردئ فى ذهاب نصوعه (الذرب) يريد أن منشأها فى الحظائر لا فى أماكن الكلأ والمرعى لأن مكه لا رعى فيها.

ومما يؤكد ذلك أيضاً أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يحبه ويدعو له بالخير ويشجعه على حب الشعر(١).

(١١) كان كعب جرنياً مقداماً ثابت الجنان:

وقد تخلل ديوانه أبياتاً شعرية يفتخر فيها بفروسيته وشجاعته وأنه لا يلقى بسلاحه لأنه على دراية واسعة بأساليب الحرب وهو ثابت الجنان يدخل الحرب برزانه لا يغم عليه مسلك من مسالك النجاة حين تلتبس المسالك على الجبان ويغشاه الهم والكرب ويقول فى هذا الإطار.

أقاتل حتى لا أرى لى مقاتلاً وأنجو إذا غم الجبان من الكرب(٢)

ويقول مفتخراً بإقدامه وشجاعته

قد علمت خيبر أنى كعب وأننى متى تشب الحرب(٣)
ماض على الهول جرى صلب معى حسام، كالعقيق غضب
بكف ماض ليس فيه عيب يدكّكم حتى يذل الصعب

الأبيات تشهد بإقدامه وشجاعته وهذه الأرجوزة رد بها على مرحب اليهودى «يوم خيبر» حين خرج من الحصن شاكى السلاح يدعو من يبارزه.

أما عن ملامح شخصيته الخلقية فهى:

(١) حسن الخلقه والمظهر مع بشاشه الطلعة

ولقد ذهب إلى ذلك «ابن حجر» عندما كان يفسر قول الرجل السلمى حينما سئل الرسول عن كعب وتخلفه عن تبوك فقال: حبسه برداه والنظر فى عطفه وقد قال بن حجر فى شرح ذلك: كنى بذلك عن حسنه وبهجته والعرب

(١) الأغانى جـ ١٥ ص ٢٨ طبعة الساسى.
(٢) الديوان ص ١٨٣.
(٣) الديوان ص ١٨٤

تصف الرداء بصفة الحسن وتسميه عطفا لوقوعه على عطف الرجل[١].

مكانته الشعرية:

بداية يجب علينا أن نذكر أن ما وصلنا من شعر كعب بن مالك ما هو إلا قليل من كثير ضاع واندثر وأكثر أشعاره التى لم تصلنا جاهلية فكتب التراجم تذكر أن كعباً شاعر مخضرم ذاعت شهرته فى الجاهلية وعرف بالشعر وقد دل على ذيوع شاعريته فى تلك الآونة أن الرسول صلى الله عليه وسلم عندما سمع اسمه من عمه العباس حتى قال: الشاعر. ولقد روى هذه الرواية ابن هشام فى نبأ خروج الأنصار وبيعة العقبة الثانية عن كعب ابن مالك»[٢].

وتقول السيدة عائشة رضى الله عنها عن شعر كعب «لقد رويت من شعر كعب بن مالك أشعاراً، منها القصيدة فيها أربعون بيتاً ودون ذلك[٣]. وهذه الروايات تؤكد لنا أن كعباً قال شعراً فى الجاهلية ولكن لم يصلنا منه شئ وقد حاول الباحثون تعليل ذلك فقال الأستاذ عبد العزيز الرفاعى «ويبدو أن الرواة لم يهتموا كثيراً برواية شعر كعب فى الجاهلية.... فقد كان إبانها شاعراً شاباً، وأن شعره آنذاك على شهرته فى المجتمع اليثربى والمكى، لم تكن له سيرورة كبرى، تستطيع أن تنافس فحول الشعر الجاهلى كما يبدو أن كعبا آنذاك لم يطرق بعد أبواب الأسواق الشعرية لحداثة سنة أو لأسباب

(١) فتح البارى بشرح صحيح البخارى «كتاب المغازى» باب حديث كعب بن مالك المكتبة السلفية ١٣٨٠هـ.

(٢) سيرة بن هشام جـ ٢ ص ٦١، ٦٢ تخلف معه مرارة بن الربيع، وهلال ابن أمية وهو - وقال الرسول لأصحابه «لا تكلمن أحداً من هؤلاء الثلاثة ومكث كعب لا يكلمه أحد خمسين يوماً.

أخرى لم ينقلها لنا التاريخ الأدبى»[١]. أما الدكتور العانى محقق ديوان كعب فعلل لضياع شعره قائلاً «انه ضاع كما ضاع شعر كثير من شعراء الجاهلية والإسلام»[٢]. وعلى أيٍّ حال فإننى أرى أن كعب بن مالك لم يقل شعراً فى الجاهلية وإن كان قال شعراً فهو قليل جداً غير جدير بنشره أو حفظه لأنه آنذاك كان صغير السن جداً فلم يك يبلغ الثانية عشرة من عمره فالمصادر ذكرت سنة ولادته قبل الهجرة بـ ٢٥ عاماً والرسول صلى الله عليه وسلم مكث فى مكة قبل الهجرة منذ أن نزل عليه جبريل بالوحى من ربه ثلاث عشرة سنة»[٣].

ومن ذلك نستنبط أن كعباً وإن كان قال شعراً فى الجاهلية فقد قاله فى سن صغير فقد قاله فى الثانية عشرة من عمره ولم يك على درجة الإجادة والإتقان لشعره الذى قاله فى العصر الإسلامى.

وربما يكون السبب فى ذلك أن كعباً كان يقول الشعر بلغة قومه وبألفاظ سلسلة وهذا ما جعل النقاد النحويون واللغويون[٤] لا يهتمون به لأنهم وإنما يبحثون من الغريب «حتى صار الأمر عندهم ذوقاً يميلون إليه متى وجدوا غريباً فى النظم كغريب الجاهلية واعتبروا الأسلوب السهل الواضح

---

(٣) المزهر فى علوم اللغة للسيوطى جـ ٢ ص ٣٠٩ طبعة عيسى البابى الحلبى.
(١) كعب بن مالك: الصحابى - الأديب المكتبة الصغيرة ص ٥٥ تأليف الأستاذ عبد العزيز الرفاعى.
(٢) الديوان ص ١٢٢.
(٣) التأثير النفسى للإسلام فى الشعر للدكتور عبد الرحيم محمود زلط ص ١٢٩ الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م دار اللواء المملكة العربية السعودية.
(٤) تاريخ النقد الأدبى عند العرب ص ٤٩ وما بعدها بتصرف شديد تأليف طه أحمد ابراهيم طبعة دار الحكمة بيروت - لبنان.

ضعيفاً ركيكاً حتى ولو كان لعلم من أعلام شعراء العصر ولهذا أبوا ذكر أشعار مثل هؤلاء. ونقول فلأجل هذا وذلك ضاع شعره ونسي وما جعلنا نؤيد الدليل الأخير ما ذكره صاحب نهاية الأرب عندما ذكر قصيدة لكعب يرد فيها على قصيدة «لقيس بن الأسلت» فى أحد أيام الأوس وهو يوم بعاث وفيها يقول(١):

زعم ابن أسلف أننا لم نثئر ... قتلى بعاث وأننا لم يردد
بمذربات، وبالأكف، نواهل ... وبكل أبيض، كالغدير مهند
ومفاضة زغف، تمور فصوصها ... صور الأضاة على القرار الجد جد
وبفتية غلب الرقاب، مغاور ... من يلقهم يوم الكريهة يبعد
أنسيت قومك سودنك رماحهم ... بعد المشيب، وكنت غير مسود
ولقد رأيت أبا عقيل بالوغى ... فصددت عنه بالنجاء الأجود
وضننت عنه بالحياة، وقد ثوى ... وتركته بالمتن غير موسد

ونقول بعد ذلك ربما يكون كعب بن مالك لم يقل شعراً إلا فى آخر حروب الأوس مع الخزرج وأن شهرته الحقيقية بدأت فى السنوات التى سبقت الهجرة النبوية. وعلى أى حال سواء قال كعب الشعر قبل الإسلام وضاع أو لم يقل شعراً قبل الإسلام أو قال ولم يهتم الرواه بذكره لسلاسته وبعده عن الغريب المستكره الذى كان يبحث عنه النقاد فإن شعره الإسلامى ينم عن موهبة حقيقية

(١) نهاية الأرب فى فنون الأدب جـ ٦ ص ٢١٧ دار الكتب المصرية طبعة سنه ١٩٢٩م لم نثئر قتلى بعات أى لم ندرك ثأرهم وبعاث يوم كان الغلبه فيه للأوس مذوبات أى أسنه حاده، مفاضة أى دروع واسعة، زعف أى محكمة، تمور خصوصها أى تتحرك حلقها ومفاصلها، الأضاة أى الغدير، القرار أى المستقر من الأرض، الجد جد أى الأرض الصلبه المستويه غلب جمع أغلب وهو الغليظ الرقبة، والعرب يصفون السادة بطول الرقبة وغلظها، سودتك أى جعلتك سيداً، النجاء أى السرعة أى سرعة الهرب، المتن هو ما ارتفع من الأرض.

فى قول الشعر. ويزكي ذلك خوضه فى كثير من الأغراض الشعرية ومنها:

(١) الفخـــر:

وقد قال أشعاراً يفخر فيها بنفسه تارة وبفروسيته أخرى وشجاعة المسلمين وحسن بلائهم فى سبيل الله مرة أخرى وها هو يفتخر بالدين الإسلامى فيقول:

اللـــه أكرمنـــا بنصـــر نبينـــا وبنـــا أقـــام دعـــائم الإســـلام
وبنـــا أعـــز نبيـــه ووليـــه وأعزنـــا بـــالنصر والإقـــدام[1]

ففخره يتوافق مع العقيدة الدينية فهو يعتز بالسبق إلى الإسلام والمبادرة إلى الاستجابة لدعوته ومن الصواب أن يوصف شعره بأنه شعر الالتزام والتضحية فهو عقائدى فى مضامنيه وأهدافه وجاء سجلاً حافلاً وناطقاً شاهداً فمثل ما كان عليه القوم من صدق فى الكلمة مع بساطة التعبير ولقد كان معظم فخره يدور فى نطاق الدين الإسلامى واعتزازه به.

(٢) المـــدح:

وأغلب مدائحه كانت فى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم وقد قال فى ذلك:

فإن يـك موسـى كلـم اللـه جهـرة على جبل الطـور المنيـف المعظـم
فقـد كلـم اللـه النبـى محمـداً على الموضع الأعلى الرفيع المسوم
وإن تـك نمل والبر بـالوهم كلمـت سليمان ذا الملك الذى ليس بالعمى

(١) الديوان ص ٩٨ تحقيق سامى مكى العانى طبعة أولى مطبعة المعارف بغداد ١٣٨٦هـ - ١٩٦٦ وانظر شعراء حول الرسول للدكتور عبد الله بن محمد أبو داهش الطبعة الأولى ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م - إصدار نادى المنطقة الشرقية الأدبى ص ٤٩.

فهـذا نبـى اللـه أحمـد سـبحت صغـار الحصـى فـى كفـه بـالترنم[١]

فهو يعدد معجزات الرسول التى أيده الله تعالى بها ويقارن بينهم وبين معجزات الأنبياء من قبله ذاكراً معجزة موسى عليه السلام حين كلم الله على جبل الطور وتكلم النبى صلى الله عليه وسلم على الموضع الأعلى ليلة الإسراء والمعراج وذكر معجزه الرسول وهى تسبيح الحصى بكفه الشريفة. حيث أنطق تعالى الحجر مسبحاً بحمد الله ولا تشك أنها معجزة أكبر من تكليم النمل لسليمان عليه السلام فيثبت بذلك أن معجزات الرسول أعظم من مثيلاتها من معجزات غيره من الأنبياء.

وقال كذلك فى مدحه صلى الله عليه وسلم

فينـا الرسـول شـهاب ثـم نتبعـه نور مضى فله فضل على الشهب
الحـق منطقـه والعـدل سـيرته فمن يجبـه إليـه ينـج مـن تبـب[٢]

هكذا يراه كعب كالبدر الذى تستمد سائر الكواكب الأخرى نورها منه لأنه صاحب الرسالة السماوية الأخيرة والتى اشتملت على كل الخير الذى ورد فيها فقوله هو الحق وسيرته هى العدل، والهلاك نصيب من لا يستجيب لدعوته.

(٣) الرثاء:

«وبكى فى قصائده فى فن الرثاء مجموعة من أعلام وأبطال الإسلام فرثى عثمان بن عفان وحمزة عم الرسول ورثى جعفر بن أبى طالب ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وفوق هذا وذاك رثى نبى الإسلام محمد

(١) الديوان ص ٢٧٠.
(٢) الديوان ص ١٧٤.

صلى الله عليه وسلم فقال فيه:

ألا انـــع النبـــى إلـــى العالمينـــا جميعـــاً، ولا ســـيما المســـلمينا
ألا انـــع النبـــى لأصحابـــه وأصحـــاب أصحابـــه التابعينـــا
ألا انـــع النبـــى إلـــى مـــن هـــدى مـــن الجـــن ليلـــة إذ يســـمعونا
لفقـــد النبـــى إمـــام الهـــدى وفقـــد الملائكـــة المنزلينـــا[1]

فرثاؤه ينم عن صدق العاطفة الحزينه على وفاة الرسول الكريم فهو ينعاه إلى العالمين مسلمين وغير المسلمين ثم يخص بالذكر الصحابه والتابعين ثم بعد ذلك يعم الرثاء إلى الإنس أجمعين ثم إلى الجن الذين شملهم هدية ليلة استماعهم إلى القرآن فهو ينعى الرسول الكريم لأنه بفقده ووفائه انقطع الوحى والهدى الذى كان ينزل به الملائكة وتكرار «ألا أنع» تدل على الألم الدفين الذى يشعر به تجاه فقد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

(٤) الهجاء:

وقد كان هجاؤه للكفار والمشركين الذين حاربوا الرسول فى نطاق محاربتهم للإسلام حين جهر الرسول بدعوته ومن هنا شجع الرسول الكريم الشعراء للرد على المعتدين بنفس سلاحهم وكان كعب بن مالك أحد هذه العناصر التى اعتمد عليها الرسول صلى الله عليه وسلم فى محاربة أعداء الاسلام وقد قال فى ذلك: «ما يمنع القوم الذين نصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم[2].

ولقد كان كعب بحق مدافعاً بلسانه عن إيمانه بصدق فقد تبنى الدفاع

(١) الديوان ص ٢٨١.
(٢) الأغانى جـ ٤ ص ١٣٨ طبعة دار الكتب.

عن الإسلام وجهز عدته الكلامية ومما لا شك فيه انه يعلم إن جرح اللسان يفوق جرح اليد وكان هجاؤه للمشركين بعد أن ذاق طعم الاستقرار وانشرح صدره بالإيمان فجاهد بلسانه حتى تكون كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا السفلى وقد قال فى ذلك:

نجالد ما بقينا أو تنيبوا إلى الإسلام إذعانا مضيفا
لأمر الله والاسلام حتى يقوم الدين معتدلاً حنيفا
وتنسى اللات والعزى وود ونسلبها القلائد والشنوفا[1]

وبذلك نرى أن الهجاء جاء من منطلق الإيمان الصادق وله هدف وهو الدفاع عن العقيدة ولنستمع إليه وهو يهجو مشركى قريش فى بدر

وعدنا أبا سفيان بدراً فلم نجد لميعاده صدقاً، وما كان وافياً
فأقسم لو وافيتنا فلقيتنا لأبت ذميماً، وافتقدت المواليا
تركنا به أوصال عتبة، وابنه وعمراً أبا جهل تركناه ثاويا
عصيتم رسول الله، أف لدينكم وأمركم السيئ الذى كان غاويا[2]

الهجاء لاذع مرير يوضح السبب فى نجاة أبى سفيان هو انحيازه بالقافله بعيداً عن المعركة ويقسم كعب أنه لو حضر المعركة لوافته المنية ولقى حتفه كما لقى مصرعه عتبه وابنه الوليد وأبو جهل ثم يلوم قريش ويستهزئ بهم لعصيانهم الرسول ويذم دينهم وأصنامهم التى هى آلهتم.

(١) الاستيعاب فى معرفة الأصحاب لابن عبد البر جـ ٣ ص ٣٧٠ القاهرة طبعة ١٩٣٩م وانظر البداية والنهاية لابن كثير طبعة القاهرة سنه ١٩٣٤م جـ ٤ ص ٣٤٥.

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبى تحقيق صلاح المنجد القاهرة معهد المخطوطات العربية ١٩٥٧م جـ ٢ ص ٢٧٦. وانظر الديوان ص ٢٩١ وعتبة هو عتبة بن الوليد وابنه الوليد - وثاويا أى هالكا.

وقد كان هجاؤه تمهيداً للحديث عن مناقضاته وقبل أن نتحدث عن مناقضاته يجدر بنا بداية أن نتعرف على معنى النقائض وبداية نشأتها وما هى العوامل المؤثرة فى ذلك.

النقائض: جمع نقيضة وهى مأخوذة فى الأصل من نقض البناء إذ هدمه والحبل إذا حله والعهد إذا خالفه، وناقضه فى الشئ مناقضة ونقاضاً: خالفه. والمناقضة فى القول: أن يتكلم بما يناقض معناه والمناقضة فى الشعر: أن ينقض شاعر ما قاله أخر بصدد ما جاء به الأول. فكانت المناقضات الشعرية. هى الحرب اللسانية التى تعزز معارك القتال. فدخل ميدانها شعراء كثيرون من يهود ومن القبائل الأخرى والنقيضة أن يقول شاعر شعراً فينقض عليه شاعر أخر حتى يجئ بغير ما قال(١).

بداية نشأة المناقضات جاهلية والدافع إليها العصبية القبلية:

كانت بداية النقائض فى العصر الجاهلى حيث تعود الشعراء فى الجاهلية أن يشاركوا فى الحروب التى عرفت بأيام العرب مستخدمين سلاحهم الشعرى فى الدفاع عن القبيلة، وإثارة الحماس فى أبنائها والإشادة بأمجادها والفخر بانتصارها وهجاء خصومها ومعايرتهم بالهزائم وتصبح الحرب الكلامية سجلاً تاريخياً لما حدث بين القبائل يحكيه الشعراء عن القبائل المتنازعة، كل يدافع عن قبيلته وينقض ما يقوله من شعراء الخصوم ومن هنا نشأت النقائض ونمت فى شعرهم وترعرعت فى هذا الجو المشبع بالخصومات والمنازعات والحروب والأيام وعلى ذلك فبداية المناقضات الجاهلية كان الدافع إليها الخلاف بين قبيلتين أو أسرتين فينتصر شاعر لقومه

(١) لسان العرب لابن منظور. مادة نقض طبعة بولاق - تصوير المؤسسة والقاموس المحيط مادة نقض.

أو لأحلاف قومه فيرد عليهم شاعر من هؤلاء فيعود الأول للرد عليه ثم يلتحم الهجاء ولقد قوى هذه النزعة فى الشعراء قيام الأحزاب وتقرب هؤلاء الشعراء إلى الخلفاء والأمراء بهجاء خصومهم تكسباً للمال.

وقد رأى الباحثون[١] أن المناقضات الجاهلية كان السر وراء نشأتها هى «الحياة الجاهلية الصحراوية وما تخللها من فقر ناتج من قسوة البيئة وهذه الحياة الجافة – جعلت العربى فى حالة نفسية ثائرة ونزعة غلابه جعلته ينفر من ذل آخر بجانب القسوة البيئية «فتحلل من مظاهر الخضوع وتعلق بالحرية تعلقاً جعله يؤثرها على فقره على الغنى الذليل»[٢].

هكذا كان الانتماء القبلى وراء مناقضات العصر الجاهلى أما الإسلام فقد حاول القضاء على العصبية القبلية أو الحد منها وإضعافها ليحل محلها فكر الأمة التى يعلو فيها السلطان الإلهى على السلطان القبلى ولتصبح الرابطة الدينية لا الرابطة القبلية هى التى توحد بين الناس»[٣].

وإذا كنا ذكرنا دوافع مناقضات الجاهلية وذكرنا أن الإسلام قضى بمبادئه على الدوافع التى كانت السبب فى تلك المناقضات الجاهلية فلابد أن يكون هناك دافع استحدث فى العصر الإسلامى أدى إلى ظهور المناقضات وهو

---

(١) تاريخ الأدب العربى للدكتور عمر فروخ جـ ١ ص ٣٦٣.
(٢) العصر الجاهلى شوقى ضيف من ص ١٧: ٢١ بتصرف شديد.
وانظر تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على ص ٨٦ طبعة بغداد مطبعة المجمع العلمى العراقى وانظر تاريخ النقائض فى الشعر العربى للأستاذ أحمد الشايب ص ٣١، ٣٢ نشر مكتبة النهضة المصرية.
(٣) العصر الإسلامى للدكتور شوقى ضيف ص ١٩ الطبعة السابعة دار المعارف بمصر.

(١) إنكار قريش دعوة الإسلام ومقاومتها لها بالسيف واللسان

لقد كان موقف قريش إزاء دعوة الإسلام العامل المؤثر فى نشوء المناقضات فقد سلكت قريش فى تصديها لدعوة الإسلام اتجاهين **الأول منهما:** التعذيب البدنى للمسلمين ليرتدوا عن دينهم ولينشروا بذلك الخوف بين الناس فلا يجترئ أحد على الدخول فى الدين الجديد.

والثانى: تعقب المشركين للدعوة الإسلامية بغية التقليل من شأنها ومن هنا نهض شعراؤهم للقيام بهذه المهمة ويعتبر عامل العداء والحرب بين المسلمين والمشركين هو العامل الحاسم فى إذكاء شعر النقائض ومما لا شك فيه أن بذور هذا العداء قد غرست منذ الفترة الأولى للدعوة فى مكة حيث تشددت قريش فى إنكارها وأمعنت فى كفرها وعمدت إلى إيذاء الرسول ونكلت بالضعفاء منهم مما اضطر إلى هجرة بعض المسلمين إلى الحبشة فراراً بدينهم من بطش قريش التى لم تقف عند هذا الحد فى محاربتها لدعوة الإسلام بل قررت مقاطعة المسلمين وعدم التعامل معهم»[١] وكانت قريش تتحين الفرص لضرب الإسلام والتصدى للدعوة الإسلامية: وقع أول صدام بين المسلمين وقريش فى غزوة بدر الكبرى التى انتهت بنصر القلة من المؤمنين على الكثرة من المشركين ومن هنا زاد العداء حدة بين كفار مكة ومسلمي المدينة وقد عزم المشركون على أن ينتقموا لهزيمتهم وفى هذا الوقت علا صوت الشعر واحتدمت نقائضه بين شعراء الفريقين فكان هناك شعراء من جانب المشركين ونهض الشعراء المسلمون للرد عليهم ومن هنا برز شعر النقائض.

---

(١) شعر النقائض فى السيرة النبوية ص ١٥ تأليف شوقى أحمد الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م.

ومن هذا المنطلق تحددت دوافع نشأة المناقضات الإسلامية وهى:

(١) الدفاع عن العقيدة الدينية فى إطار من الحرب النفسية:

فقد أتى الإسلام والمشركون على تلك الحالة من العصبية القبلية. ولجأ المشركون إلى الشعر يهجون به الإسلام والمسلمين، وكان لابد من ردعهم وإيقافهم عند حدودهم فسمح رسول الله صلى الله عليه وسلم لشعراء المسلمين بالرد عليهم لإسكاتهم وذلك دفاعاً مشروعاً عن النفس وعملاً بالآية الكريمة «فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم»[١] وشجعهم الرسول وقال لهم «قولوا لهم مثل ما يقولون لكم»[٢] وروى فى مسند الإمام أحمد قوله صلى الله عليه وسلم «واهجوا بالشعر، إن المؤمن يجاهد بنفسه وماله» وإذا كانت المناقضات الجاهلية قذائف موجهة للأشخاص فى أعراضهم وشرفهم والتعرض لأحسابهم بجارح اللفظ مع المعنى اللاذع ويروى أنه لشدة وقع الهجاء فى نفوس الناس أنهم كانوا يشترون ألسنة شعراء الهجاء ويتجنبونهم «فلشدة وقع الهجاء فى نفوس العرب فى ذلك العصر فقد بكى بعضهم بالدموع الغزار لأجله، كما فعل مخارق بن شهاب وعلقمة بن علاثة. وكذلك بكى عبد الله بن جدعان من بيت لخداش بن زهير [٣] ونظراً لأهمية هذا اللون خاصة والشعر عامة فى نفوس الجاهليين فقد كانت القبيلة تستبشر إذا ولد فيها شاعر «لأنه حماية لأعراضهم وذب عن أحسابهم وتخليد لمآثرهم وإشادة بذكرهم»[٤]

---

(١) البقرة آية ١٩٤.

(٢) العقد الفريد لابن عبد ربه جـ ٥ ص ٢٩٤ طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ١٣٨٥هـ، ١٩٦٥م.

(٣) الحيوان للجاحظ جـ ١ ص ٣٦٤ تحقيق عبد السلام هارون طبعة.

(٤) العمدة لابن رشيق القيروانى جـ ١ ص ٤٩ تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد طبعة حجازى القاهرة ١٣٥٣هـ/ ١٩٣٤م.

وإذا كانت هذه هى سمات المناقضات الجاهلية فإن مناقضات العصر الإسلامى تختلف عن المناقضات الجاهلية. فمع أنها تحفل بالإثارة والتذكير وإعمال الفكر فى الحروب والغزوات الإسلامية وكان هدفها ليس كما مضى جاهلياً وإنما غايتها فى أكثر المواقف أن يجهز كل من الفريقين نفسه رداً على الأخر، يفند ما سمعه، ويزيد عليه مما حوته محصلته الفكرية واختزنه خياله، وكذلك كان يحاول من يرد أن يكون أشد نكاية فيمن يبدأ بالعداء.

ويمكن من خلال ذلك أن نستنتج أن الدافع وراء المناقضات الإسلامية هو

(٢) بيان أصالة الفكر الإسلامى

ولقد اتضح ذلك فى أن المناقضات الشعرية كانت توضح تأثر شعراء المسلمين بروح دينهم فيما نظموا حيث أبانوا من خلال شعرهم السبب والغاية المرجوة من هذا اللون من الشعر.

ومن خلال المناقضات الإسلامية نجد لوحات فنية من الشعر الإسلامى للشعراء الذين حضروا المعارك المختلفة أو عاشوا أيامها أو خاضوها كفوارس ولقد صورا فى أشعارهم تلك المعارك تصويراً صادقاً كان لها وقعها على نفوس الكفار ونظراً لهذا التأثير النفسى لم ينه عنها الرسول بل شجعها وحث عليها لرفع رايه الإسلام فالرسول صلى الله عليه وسلم لم يصطنع الشعراء لتعظيم نفسه، كما كان يفعل الملكون وأصحاب التيجان ولكنه اصطنعهم «لينافحوا عن المسلمين وليجزوا على الشر بمثله فيشهروا بمثالب المشركين ويحقروا من شأنهم»[١].

(١) دراسات فى الأدب الإسلامى ص ٤٧ للدكتور محمد خلف الله طبعة القاهرة لجنة التأليف سنه ١٩٤٧م.

ومن هنا فقد كان الدافع وراء المناقضات الإسلامية بيان أصالة الفكر الإسلامى.

أول مناقضة شعرية فى العصر الإسلامى:

كانت أول مناقضة شعرية ظهرت فى صدر الإسلام عندما علمت قريش بخبر بيعتي العقبة فظهر إستياء قريش وغضبها لذلك ولقد دفع هذا الغضب ضرار ابن الخطاب إلى أن يقول شعراً يعبر عن غضبه ورغبته فى الانتقام من الرجلين ويتمنى لو نالت يده المنذر ليقتله ويلوم على إطلاق سعد فيقول:

تداركت سعدا عنوة فأخذته وكان شفاء لو تداركت منذراً
ولو نلته طلت هناك جراحه وكان حرياً أن يهان ويهدرا[1]

فأجابه حسان بن ثابت ينقض قوله فيقول:

لست إلى سعد ولا المرء منذر إذا ما مطايا القوم أصبحن ضمرا
فلولا أبو وهب لمرت قصائد على شرف البرقاء يهوين حسرا
أتفخر بالكنان لما لبسته وقد تلبس الأنباط ريطاً مقصراً

إلى أن يقول:

فإنا ومن يهدى القصائد نحونا كمستبضع تمرا إلى أرض خيبرا[2]

ومن هنا نرى أن أول مناقضة إسلامية قيلت بعد بيعتى العقبة الأولى والثانية وليست بعد الهجرة كما قال أحد الباحثين[3] فى حين إن هجرة الرسول لم تكن تلك الأونة بل حدثت بعد ذلك.

---

(١) السيرة النبوية ف ١ ص ٤٥٠ - ٤٥١.
(٢) نفسه ص ٤٥١.
(٣) تاريخ النقائض فى الشعر العربى للأستاذ أحمد الشايب ص ١٢٠ نشر مكتبة النهضة المصرية.

مناقضات كعب بن مالك الأنصارى

وفى إطار العداء بين المسلمين والكفار علا صوت الشعر واحتدمت نقائضه بين شعراء الفريقين. فكان من شعراء قريش. عبد الله بن الزبعرى، وضرار بن الخطاب وهبيره بن أبى وهب وتصدى لهم شعراء المسلمين وعلى رأسهم حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة ونتعرض فى هذا البحث إلى مناقضات كعب بن مالك الأنصارى بالتحليل ولنبدأ بأول مناقضة له وهى:

☆☆ مناقضاته فى غزوة بدر

وكانت الغزوة قد انتهت بهزيمة المشركين وكان وقع الهزيمة أشد ما يكون قسوة عليهم فنهض شعراؤهم بقول الشعر يحاولون من خلاله أن ينتقصوا من النصر الذى حققه المسلمون ويقللوا من شأنهم فقال ضرار بن الخطاب:

عجبت لفخر الأوس والحَين دائر عليهم غدا والدهر فيه بصائر
وفخر بنى النجار إن كان معشر أصيبوا ببدر كلهم ثم صابر
فإن تك قتلى غودرت من رجالنا فإنا رجال بعدهم سنغادر[1]

فهو يتعجب من فخر الأوس وبنى النجار لقتل رجال قريش فى غزوة بدر ويعلل لقتالهم ويصورهم فى موقف بطولى وكأن قتلهم كان بسبب صمودهم فى ميدان القتال وعدم فرارهم مما يعد لهم فى مفاخرهم ثم يقول إن

(١) السيرة ق ٢ ص ١٣، ١٤ والبداية والنهاية لابن كثير جـ ٣ ص ٤.
وأنظر السيرة ق ٢ ص ٣، ١٤ تحقيق مصطفى السقا وآخرين طبعة الحلبى ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٥م.

الموت كاس لابد أن يتجرعه أى إنسان واليوم كان لموتى قريش وغداً سيكون لموتى المسلمين ثم يقول:

وتردى بنا الحرد العناجيج وسطكم بنى الأوس حتى يشفى النفس ثائر[1]
ووسط بنى النجار سوف نكرها لها بالقنا والدارعين زوافر
ونترك صرعى تعصب الطير حولهم وليس لهم إلا الأماتى ناصر
وتبكيهم من أهل يثرب نسوة لهن بها ليل عن النوم ساهر
وذلك أنا لا تزال سيوفنا بهن دم ممن يحاربن مائر

وضرار بن الخطاب يتوعد المسلمين أن الدائرة ستدور عليهم وذلك من خلال هجوم من جانب المشركين على المسلمين فيجتاح ديارهم وينتهى بوفاتهم ولن يبقى فى ديارهم من يبكيهم سوى النساء ثم يقول:

فإن تظفروا فى يوم بدر فإنما بأحمد أمسى جدكم وهو ظاهر
وبالنفر الأخيار هم أولياؤه يحامون فى اللأواء والموت حاضر

أولئك لا من تبحث فى ديارهم بنو الأوس والنجار حين تفاخر
ولكن أبوهم من لؤى بن غالب إذا عدت الأنساب كعب وعامر
هم الطاعنون الخيل فى كل معرك غداة الهياج الأطيبون الأكاثر[2]

ويحاول ضرار بن الخطاب من خلال ما سبق من أبيات أن يقلل من شأن المسلمين ويقلل من قيمة النصر الذى أحرزوه قائلاً أن ما حققوه من نصر كان يفضل أبناء قريش ومنهم أحمد الذى كان بينهم وهو من أبناء قريش الأخيار ومعه أولياؤه لا بفضل الأنصار فبهم كان الظفر وإليهم يعود الفضل

(١) نفسه ص ١٤. تردى أى تسرع، الجرد أى الخيل العتاق القصيرات الشعر، العناجيج أى الطويل السريع مفردها عنجوج، زوافر جمع زافيرة وهى الحاملات للثقل، مائر أى سائر.
(٢) نفسه ص ١٥.

فى الانتصار وليس الفضل فى النصر لأبناء الأوس والخزرج.

ومن خلال المناقضة تبدو النيه السيئة للشاعر فهو يسعى للتفرقة بين صفوف المسلمين بطريق غير مباشر عن طريق التفرقة بين المهاجرين والأنصار ويبدو من خلال مناقضة «ضرار بن الخطاب» أن التعصب القبلى مازال يسيطر عليه فكأنه يرى أن الحرب ليست مقصدها الدفاع عن العقيدة ولكن فى رأيه كما يبدو من المناقضة أنها دفاع عن القبائل وتدور حول تفضيل إحداهما على الأخرى.

وينهض «كعب بن مالك» ينقض قوله ولكن فى إطار من التعاليم الإسلامية فيقول:

عجبت لأمر الله والله قادر على ما أراد، ليس لله قاهر
قضى يوم بدر أن تلاقى معشرا بغوا وسبيل البغى بالناس جائر

فكعب يبدأ قصيدته متعجباً كما بدأها ضرار ولكن إختلاف كعب يظهر فى أن تعجبه كان تعجب المؤمن بقدرة الله وقضائه فى ذلك اليوم على الرغم من حرص المشركين على أن يجمعوا عدداً كبير منهم عازمين على حرب المسلمين من خلال هؤلاء القوم الباغين وعلى الرغم من ذلك فقد شاءت إرادة المولى عز وجل فى انتصار المسلمين رغم قلة عددهم ومما لا شك فيه إن كعباً بذلك يؤكد شدة وقع الهزيمة عليهم لأنها أصابتهم من قلة من المؤمنين.

ثم يذكر كعب كيفية تصديهم لهؤلاء البغاة فيقول:

وسارت إلينا لا تحاول غيرنا بأجمعها كعب جميعا، وعامر
وفينا رسول الله، والأوس حوله له معقل منهم عزيز وناصر

وجمع بنى النجار تحت لوائه يمشون فى الماذى، والنقع ثائر
فلما لقيناهم، وكل مجاهد لأصحابه، مستبسل النفس، صابر
شهدنا بأن الله لا رب غيره وأن رسول الله بالحق ظاهر
وقد عريت بيض خفاف، كأنها مقابيس يزهيها لعينيك شاهر
بهن أبدنا جمعهم، فتبددوا وكان يلاقى الحين من هو فاجر
فكب أبو جهل صريعا لوجهه وعتبه قد غادرنه وهو عاثر
وشيبة والتيمى غادرن فى الوغى وما منهم إلا بذى العرش كافر
فأمسوا وقود النار فى مستقرها وكل كفور فى جهنم صائد
تلظى عليهم، وهى قد شب حميها بزبر الحديد والحجارة ساجر
وكان رسول الله قد قال: أقبلوا فولوا، وقالوا: إنما أنت ساحر
لأمر أراد الله أن يهلكوا به وليس لأمر حَمَّهُ الله زاجر[1]

ومن أبياته يتضح لنا الغاية من هذه الغزوة فليس الصراع القبلى كما زعم خصمه بل هى من أجل الدفاع عن العقيدة بغية تأكيد المبادئ الإسلامية ويظهر فى المناقضة نقض قول الخصم فإذا كان ضرار حرص على أن يسلبهم البطولة والشجاعة كما حرص على والتفرقة بين صفوف المهاجرين والأنصار فإن كعباً يجمعهم فى مناقضته تحت لواء الإسلام وقيادة الرسول الكريم وإذا كان الخصم تعمد إلغاء انتصار الأنصار وأثبته للمهاجرين من منطلق أنهم من أبناء قريش فنجد كعباً يوحد بين صفوف المهاجرين والانصار

(١) الديوان ص ٢٠٠ كعب وعامر أراد بنى كعب وبنى عامر وخصهما بالذكر لأن أكثر بطون قريش تنسب إليهما المعقل أى الموضع الذى يلجأ إليه والماذى الدروع البيض اللينة والنقع الغبار وستبسل النفس أى موطنها مدربها على الموت والمقصود بالبيض أى السيوف والمقابيس وهى شعلة من نار تقتبس معظم النار ويزهيها أى يحركها وأبدنا أى أهلكنا والحين الموت وعاثر أى ساقط واليتمى أحد رجلين من يتم فتلافى بدر والمقصود بزبر الحديد أى قطعة وساجر أى موقد والمقصود بحمه الله أى قضاه وزاجر أى مانع.

ويشيد بجهادهم البطولى وصمودهم فى ميدان القتال ومن هنا تخلل مناقضة كعب قلب للمعانى التى قالها الخصم وهو محاولته تقليل شأن الأنصار فقلب المعانى لهم فقد بين أن النصر تحقق بفضل الأنصار بجانب المهاجرين بقيادة الرسول الكريم الذين أيدوه وكانت الأوس حوله وبنو النجار تحت لوائه مؤيدين لدعوته متمسكين بدينه وقيادته لهم فى الوقت التى أعرضت عنه قريش وتمسكت بما هى عليه من ضلال وقد وضح ذلك فى قوله:

وكان رسول الله قد قال: أقبلوا فولوا، وقالوا: إنما أنت ساحر

وكعب بن مالك صور الفريقين فى ميدان القتال تصويراً بارعاً فصور الفريق الأول وهم البغاة ويرى أن قدر الله شاء أن يلاقى المؤمنون وانضم إليها أكثر بطون قريش وعلى رأسهم بنو كعب وبنو عامر وقد أكد ذلك وهو كثرة عدد المشركين فى قوله:

وسارت إلينا، لا تحاول غيرنا بأجمعها كعب جميعاً، وعامر

وفى قوله «لا تحاول غيرنا» تأكيد من الشاعر على أن نية المشركين عقدت على إبادة المسلمين دون سواهم. وبعد أن يصف كعب الجمعين وشهادة المؤمين بأن الله لارب سواه وتيقنهم بنصره إياهم تتوالى الصور البارعة على خياله فيصف أدوات الحرب التى أستعملها المسلمون فى القتال فيرى أن هذه السيوف انفضلت عن أغمادها فإذا هى حادة لامعة متألقة كأنها شعل من نار يقذفها الأبطال فى عيون الأعداء وأنها أعدت خصيصاً لهم كى يقذفها الأبطال فى عيون أعدائهم لتبيد جموع الشرك وتفرق بينهم مما أدى إلى اختلال نظامهم. ونرى كعباً يعبر فى إطار وصفه للسيوف التى خاض بها المسلمون المعركة نراه يعبر عن فرحته وسروره لما لاقى هؤلاء المشركين من قتل جزاء كفرهم «وكان يلاقى الحين من هو كافر» والحين هو الموت وكأن كعب

يريد أن يبرهن على تشبيهه السابق وإن كان معناه قد تم ولكنه رأى أن المعنى كى يتضح فى الأذهان لابد من دليل عليه فأتى بالدليل على ذلك وهو أن السيوف التى استعملها المسلمون حققت الغرض منها وهو أنها كانت قاصدة الكفار ولا يكتفى بذلك بل يعدد هؤلاء الكفار بأسمائهم فأبو جهل كب على وجهه صريعاً وعتبة غودر وهو ساقط يتخبط فى دمائه وشيبة والتيمي غودرا صريعين فى أرض المعركة ويؤكد ما قاله من أن هذه السيوف لم تعَدَّ إلا لقتال المشركين خاصة وأنها كانت تترقبهم لتودى بحياتهم فيقول «وما منهم إلا بذى العرش كافر» يؤكد غايتها وهى رقاب الكفار ثم فى نهاية المناقضة يبين نهايتهم الأليمة فكانوا بمثابة الوقود الذى يشعل نار جهنم وكان وقودها الحديد والحجارة ثم يختم أبياته موضحاً أن هذا الجراء كان عدالة السماء لأنهم كذبوا بالحق وقالوا للرسول انما أنت ساحر ومن هنا نزل بهم هذا الجزاء ولاراد لأمر الله وقد قال فى ذلك

لأمر أراد الله أن يهلكوا به وليس الأمر حَمَّهُ الله زاجر

وبهذا يؤكد كعب فى الرد على خصمه التزامه بالمنهج الإسلامى متجنباً نزعته الجاهلية متصدياً لها بنزعته الإسلامية التى قلبت مفاهيمه الجاهلية وأكدت القيم والتعاليم الإسلامية وهكذا ظهر «المعنى الاسلامى فى مناقضة كعب ولقد كان كعب فى إطار إظهار المعانى الاسلامية أوضح وأبرز من حسان[1] فالجهاد والتوحيد وظهور الرسول صلى الله عليه وسلم على أعدائه بالحق كلها معان إسلامية عرف كعب كيف يستفيد منها ومناقضة كعب التى رد بها على خصمه كانت من نفس البحر «الطويل» الذى قال بهما

(١) شعراء المخضرمين وأثر الإسلام فيه للدكتور يحى الجيور مؤسسة الرسالة الطبعة الثانية ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

الخصم ونفس عدد الأبيات وهذا هو المتبع فى المناقضات بوجه عام إلا القليل منها الذى خالف ذلك بالإضافة إلى أن كعبا حرص على تتبع المعانى التى قالها الخصم آخذاً على عاتقه الرد عليها معنى تلو الآخر ولكن رداً من منطلق عقيدة راسخة تفخر وتعتز بعقيدتها الإسلامية وهذا شأن «الأدب الإسلامى» الذى لا يكون إلا صورة من صور الاسلام فهو يخلص الإنسان من جاهليته وكما فعل فى المجتمعات الجاهلية حين استصفى منها كل فضائلها وصاغها مع نظامه المتكامل لأنها تتوافق مع فطرة الإنسان كذلك يفعل الأدب الاسلامى ولقد حملت النقائض الفكرة وبشرت بالعقيدة وزينت للناس المبادئ ولقد اتضح ذلك من خلال مناقضة كعب وذلك لايمانه الصادق «فالأديب المسلم لا يكتسب هذه الصفة إلا إذا كان مؤمناً حقاً ومسلماً صادقاً يلتزم شرع الله فكراً وسلوكاً واعتقاداً»(١).

ولقد اتضحت المعانى الاسلامية فى كل بيت يرد فيه على الخصم فقال له - ان انتصارهم جاء من التفافهم جميعاً حول رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأنصار أوَ المهاجرين والكل يسارع لسماع أوامره وكان يقود المعركة بنظام وحنكة فى حين أن جموع المشركين قصدوا الأوس وبنى النجار دون غيرهم فلما كان اللقاء شهد المؤمنون أن لا إله إلا الله فزادت قوتهم وانتصروا على عدوهم وكأن السيوف فى أيديهم رش يتطاير ليصيب مقاتل المشركين حتى صرع أبو جهل وعتبة وشيبة وهم من الفرسان المعدودين فى ميدان الحروب لدى الكفار ثم يوضح من منطلق دينى أن هؤلاء القتلى من المشركين وهم وقود النار وهم يكبلون بالحديد ويقذفون بحجارة

(١) فى الأدب الاسلامى المعاصر دراسة وتطبيق للدكتور محمد حسن بريغش مكتبة الحرمين الرياض البطحاء الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

صاعقة جزاء وفاقاً وفى هذا إشارة إلى أن القتلى من المؤمنين أحياء عند الله يرزقون بينما قتلى المشركين فى جهنم وبئس المصير وفى أخر بيت يبرز كعب أن هؤلاء جميعاً دعاهم الرسول الكريم للهداية والايمان فأبوا وامتنعوا وانكروا رسالته صلى الله عليه وسلم صر ورموه بالسحر فحاق بهم سيئات ما مكروا «وكأنى بكعب بن مالك يشتق معانى أبياته هذه من آيات الذكر الحكيم فى قوله تعالى فى سورة الحج» هذان خصمان اختصموا فى ربهم فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصيب من فوق رءوسهم الحميم يصهر به ما فى بطونهم والجلود ولهم مقامع من حديد كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير»[1].

الموازنة بين المناقضتين:

ولو عقدنا موازنة بين المناقضتين لتبين لنا أن الخصم قد أورد الوعيد فيما يقرب من نصف عدد الأبيات فهو يتوعد وفى بقية الأبيات تكاد الفكرة تنحصر فى أن النصر كان من القريشيين المؤمنين على القريشيين الكافرين لكن كعبا فى مناقضته وضح فى البيت الثانى صفات الكفار ثم بين غايتهم وقصدهم فى البيتين التاليين ثم من خلال ذلك وضح ضرورة الاعتصام بحبل الله جميعاً مهاجرين وأنصار تحت لواء الرسول ثم بين الغرض الاسلامى للغزوة وهو نصر العقيدة ثم شرح كعب بألفاظ قليلة تنطوى تحت معانى كثيرة ما دار فى ميدان المعركة وكيف عملت سيوف المسلمين فيهم ونالت منهم

(١) التأثير النفسى للإسلام فى الشعر ص ١٥٥ للدكتور محمود عبد الرحيم زلط دار اللواء المملكة العربية السعودية الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

وأضحوا وقوداً لنار جهنم تصطلى بهم ثم ينهى كعب أبياته أن هذه الغزوة سبقها إنذار من الرسول الكريم للكفار بضرورة الإيمان بالله فاستكبروا ومكروا بأمر الله فحاق بهم سيئات ما مكروا فكان الجزاء من جنس عملهم فأصبحوا حطباً يوقد به النار وكان جزاء المؤمنين جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ومن هنا يتضح لنا أن المناقضات الإسلامية تختلف عن مناقضات الشعراء غير المسلمين.

فقد رأينا أن مناقضة الخصم احتفظت بالطابع الجاهلى القديم من التمسك بالعصبية القبلية أما مناقضة كعب فكانت «تقاوم تيار الغازى الجاهلى وتقاوم المعصية المتفشية فى كل شئ من حياة المجتمع الجاهلى»[1] لأنها تخضع للمؤثرات الجديدة فى هذا العصر وفى طليعتها الدين والسياسة. وهكذا نجد أن المناقضات فى العصر الاسلامى امتزجت فيها الروح القبلية بالروح الاسلامية والأفكار السياسية فنجد الطابع الجاهلى واضحاً فى شعر المشركين فى حين نجد أن الطابع الاسلامى هو الغالب فى مناقضة كعب بن مالك.. وعلى أى حال فالأدب الاسلامى نما وترعرع من هذه المناقضات «وليس مهما أن يقول قائل عنها أنها لا تطابق الشروط الفنية ولا تتوفر فيها العناصر المطلوبة وهى أقل من هذا وذاك فالأدب الإسلامى الحقيقى يخط طريقة بصورته المتميزة وهو الذى يضع الأداة ويختار الأسلوب ويصطنع الوسيلة ويضع الموازين»[2].

(١) العصبية القبلية ص ٢٠٦ وأثرها فى الشعر الأموى تأليف احسان النص دار الفكر الطبعة الثانية ١٩٧٣م.

(٢) فى الأدب الاسلامى المعاصر ص ٣٦ محمد حسن بريغش طبعة أول ١٤٠٢هـ، ١٩٨٢م.

(أ) مناقضة كعب فى غزوة أحد

وقد قال كعب مناقضة فى هذه الغزوة تبلغ تسعة وأربعين بيتاً وأولها

ألا هل أتى غسان عنا ودونهم من الأرض تحرق سيرة متتعنع[1]

ومما تجدر الإشارة إليه فى هذا الإطار أن مناقضات المشركين فى غزوة أحد قد كثرت بسبب انتصارهم ومن ذلك قصيدة لهبيرة بن أبى وهب المخزوميّ التى يبدؤها بقوله:

ما بال هم عميد بات يطرقنى بالود من هند إذ تعدو عواديها
سقنا كنانة من أطراف ذى يمن عرض البلاد على ما كان يزجيها
قالت كناية: أنى تذهبون بنا؟ قلت: النخيل فأموها ومن فيها

نحن الفوارس يوم الجر من أحد هابت معد فقلنا نحن نأتيها
هابوا ضرابا وطعنا صادقاً خذما مما يرون وقد ضمت قواصيها
ثُمّت رحنا كأنا عارض برد وقام هام بنى النجار يبكيها
كأن هامتهم عند الوغى فلق من قيض ربد نفته عن أداحيها
أو حنظل زعزعته الريح فى غصن بال تعاوره منها سوافيها[2]

فنجد هبيرة ينحى منحى التعالى والفخر بقوته وقوة قومه والملاحظ أنه بدأها بالنسيب وهو نسيب يربطه بذكر الحرب التى شغلته عن صاحبته وبعد أن

---

(١) الديوان ص ٢٢٢.

(٢) السيرة جـ ٢٢ ص ١٢٩ عرض البلاد أى سعتها، يزجيها أى يسوقها النخيل اسم لعين قرب المدينة أموها أى قصدوها، الجر أصل الجبل، خذم بقطع اللحم سريعاً. قواصيها ما تفرق منها. عارض برد سحاب فيه برد، الهام جمع هامة وهى الطائر الذى تزعم العرب أن يخرج من رأس القتيل يصبح لطلب الثأر والفيض أى قشر البيض، الربد أى النعام، أداحيها أى مواضع بيضها، ذعذعته أى حركته تعاوده أى تتداوله، السوافى أى الرياح المثيرة للرمال والتراب.

يفتخر بنفسه وبفروسيته وحسن إعداده للحرب ووصف سيفه ورمحه ودرعه فيتحدث عن قوة قومه وكيف أنهم احتشدوا فى مجموعات من كنانة واجتياحهم البلاد دون أى رهبة قاصدين المدينة وأنهم الفوارس الذين أقبلوا على الحرب فى قوة خافت منها قبائل معد ثم يصف ما حاق بالأنصار ممثلاً لهم ببنى النجار من تقتيل أبكاهم ويشبه تطاير رءوسهم فى المعركة بالقطع المتناثرة من قشر بيض النعام أو الحنظل ثم يفتخر ببطولة قومه وسخائهم وكرمهم وإن ما هو فيه من كرم قد ورثه عن آبائه وكذلك مروءته ورثها عن أجداده.

ويقوم كعب بالرد على هبيرة فى مناقضة يقول فيها

سقتم كنانة جهلا من سفاهتكم إلى الرسول فجند الله مخزيها
أوردتموتها حياض الموت ضاحية فالنار موعدها والقتل لاقيها
جمعتموها أحابيشا بلا حسب أنمة الكفر غرتكم طواغيها
ألا اعتبرتم بخيل الله إذ قتلت أهل القليب ومن ألقينه فيها
كم من أسير فككناه بلا ثمن وجز ناصية كنا مواليها[1]

فإذا كان هبيرة قد افتخر بتجميع كنانه فيقول كعب ان هذا الفخر ليس فى محله لأن المفروض أن يسخر من هذا التجمع لأنه عمل دال على الجهل والسفاهة وقلة العقل لأن تجمعهم كانت الغاية منه حرب الرسول صلى الله عليه وسلم موضحاً أنهم لابد أن يلاقوا الهزيمة التى يعقبها خزى وإهانة وعلى يد المؤمنين وتكون نهايتهم فى نار جهنم التى أعدت لهم ومن هنا نجد أن كعباً تتدفق منه المعانى الإسلامية إنطلاقاً من عقيدته الدينية بالإضافة إلى السخرية اللاذعة من وصف جموعهم بأنها جموع أحابيش مكة الذين يفتقدون أصالة الانتماء القبلى وإذا فقدوا تلك الصفة فلا معنى لفخره بهم وقد فقدوا أهم صفة

(١) الديوان كعب بن مالك ص ٢٩٢.

من صفات الجاهليين ثم يؤكد فى مناقضته ضعف قواهم والتقليل من شأنهم بتذكيرهم ببدر ووقوعهم أسرى فى أيدى المسلمين لعل ذلك يكون ردعاً لهم.

وقال فى مناقضه أخرى يرد عليه بوزن مختلف وقافيه مختلفة وقالها فى غزوة أحد.

وهى أطول المناقضات التى وردت فى شعر السيرة وهو الذى يقول فى بدايتها.

ألا هل أتى غسان عنا ودونهم ... من الأرض خرق سيره متتعنع
صحار وأعلام كأن قتامها ... من البعد نقع هامد متقطع
تظل به البزل العراميس رزحا ... ويحلو به غيب السنين فيمرع

به جيف العسرى يلوح صليبها ... كما لاح كتان النجار الموضع
به العين والآرام يمشين خلفة ... وبين نعام قيضه يتقلع
مجا لدنا عن ديننا كل فخمة ... مذرية فيها القوانس تلمح
وكل صموت فى الصوان كأنها ... إذا لبست نهى من الماء مترع
ولكن ببدر سائلوا من لقيتم ... من الناس والأنباء بالغيب تنفع
وإنا بأرض الخوف لو كان أهلها ... سوانا لقد أجلوا بليل فأقشعوا
إذا جاء منا راكب كان قوله ... أعدوا لما يزجى ابن حرب ويجمع
فمهما يهم الناس مما يكيدنا ... فنحن له من سائر الناس أوسع
فلو غيرنا كانت جميعاً تكيده ... برية قد أعطوا يداً وتورعوا
نجالد لا تبغى علينا قبيلة ... من الناس إلا أن يهابوا وينظعوا
ولما ابتنوا بالعرض قال سراتنا ... علام إذا لم نمنع العرض نزرع

وفينـــا رســـول اللـــه نتبـــع أمـــره		إذا قـــال فينـــا القـــول لا نتطلـــع[1]

يستهل الشاعر قصيدته بهذا الابتداء المعروف فى الشعر الجاهلى (ألا) فيصور المسافات الشاسعة بينه وبين أرض غسان والتى جعلها فلاة مترامية الأطراف تتخرق فيها الريح لاتساعها واضطرابها ويبالغ فى وصف المسافات الشاسعة بينه وبين أرض غسان فيذكر انها صحار وجبال رهيبة كأن غبارها الأسود من البعد غبار معركة تملأ الجو بترابها ويستمر فى وصف الطريق الصحراوى إلى بلاد الغساسنة فهو طريق صعب لا تستطيع الجمال القوية اجتياز صحرائه، وهذه الصحراء لقلة وطئها من الوحوش والقوافل أخصبت وأمرعت بفعل تساقط الغيث عاماً بعد عام وفى البيت كناية عن وحشة تلك القفار النائية. وفى البيت الرابع يأتى الشاعر بصورة عربية إمعاناً فى وصف وحشة تلك الصحراء المقعرة وهى أن جيف الابل المنتشرة على أديم الأرض تبدو عظامها وكأنها نقوش قماش بسطه التاجر للبيع وفى

(١) الديوان ص ٢٢٢ ألا: أسلوب إبتداء وغسان الغساسنه فى الشام والخرق أى الفلاة الواسعة متتعنع أى مضطرب والأعلام الجبال، والقتام ما مال لونه إلى السواد والنقع القمار والبزل هو البعير القوى والعراميس واحدها عرمس وهى الناقة الشديدة والرزح جمع رازح وهو الهالك هذاك، يمرع أو يخصب والحسرى جمع حسير وهو الهالك والصليب ودك العظام والموضع المبسوط المنقوش، والعيه جمع عنياء وهى البقرة الوحشية والآرام جمع رام وهو الظبى الخالص البياض، خلفة قطعة خلف قطعة، والقيض قشر البيض ويتقلع أى يتشقق ومجالدنا أى مدافعنا والفخمة أى الكتيبة العظيمة، مذربة اعتادت القتال وتمرست عليه الصموت أى الدرع سماها صموتا لشدة نسجها وتقارب نسجها والصوان: كل ما يصان فيه الشئ درعا كان أو ثوباً والنهى أى الغدير ومنزع مملوء ماء أو أى سائل، يزجى أى يجمع وابن حرب يعنى أبا سفيان، تورعوا أى ذلوا وهانوا يفظعوا أى يهابوا ويفزعوا، ابتنوا أى ضربوا أبنيتهم، العرض موضع خارج المدينة وكل واد فيه شجر فهو عرض.

البيت الخامس يستمر فى وصفه لبعد هذه الصحراء عن القوافل ووطء الانسان وفى إثناء وصفه لبعد الصحراء يصور بقر الوحش والظباء تمشى جماعة خلف جماعة دون خوف لما تنعم به من الأمن والاستقرار ويعيش هناك النعام بدليل أن بيضه ملقى على الأرض ويتشقق قشره وفى البيت السادس يبدأ الشاعر فى فكرة جديدة بعد أن إنتهى من وصف الرحلة والراحلة إلى التحدث عن شجاعة المسلمين فهم يصدون هجوم المشركين ويدافعون عن دينهم بكتيبة عظيمة تعودت على القتال تمرست عليه وقد لبس الجنود فيها الخوذ اللامعة ويستمر فى وصف الكتيبة التى تدافع عن دين الاسلام بأن فرسانها يلبسون الدروع المصانة التى تشبه الغدران المنتشرة فى أرجاء المدينة وفى البيت الثامن يذكر ما طلبه الشاعر من االمشركين أن يسألوا الذين حضروا بدراً وهم يزودنكم بما لا تعلمون عن جيش المسلمين وقد عمد الشاعر إلى تذكيرهم بيوم بدر وهو بذلك يساير أسلوب الجاهلين فى الفخر والهجاء وذلك مصداقاً لقول صاحب الأغانى بأن حسان وكعباً كانا يعارضان قريشاً يمثل قولهم بالوقائع والمآثر ويعيرانهم بالمثالب[1] ويستمر الشاعر فى تصوير مواقف المسلمين وتبيان القوى التى تؤهلهم للفور بالنصر على الأعداء فيقول: وإنا لنصمد فى مواقع لا يستطيع غيرنا الصمود فيها لما نتحلى به من جلد وشجاعة وفى البيت العاشر إن فرسان الاستطلاع الذين نبعث بهم لرصد تحركات العدو يدعونا دائماً لاعداد العدة للحروب لمواجهة الكتائب التى كان يقودها أبو سفيان بن حرب الذى تعود على جمع الجيوش وسوقها إلينا وفى البيت الحادى عشر يصف المسلمين بالتعود على تحمل الشدائد فكل ما يسبب الهم للناس يعد شيئاً بسيطاً بالنسبة لنا لأننا تعودنا على مواجهة ما هو أشد وأصعب ويذكر

(١) الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى جـ ٤ ص ١٣٧ طبعة دار الكتب.

مثالاً على صبرهم وهو على الرغم من تأليب الكفار لسائر القبائل العربية على المسلمين إلا أنهم تذرعوا بالصبر وتمسكوا بحبل الله المتين ولو أن ما أحدق بهم أحدق بغيرهم لذلوا وهانوا واستسلموا صاغرين ويستمر الشاعر فى وصف أصحابه بالصبر فى القتال وبأنهم لا يتوانون فى النيل من أعدائهم وكل قبيلة تظلمهم ينتقمون بادخال الرعب إلى قلوب أفرادها وعندما نزل جيش أبى سفيان بمكان العرض قرب المدينة قال زعماؤنا من المسلمين إذا لم ننجح فى صدهم واجلائهم فعلام نقيم فى المدينة ونزرع أرضها ونتخذها دار مستقر وإقامة وفى البيت الخامس عشر يذكر أن أهم ما يتميز به المسلمون هى القوة الروحية التى يستمدونها من قيادة الرسول صلى الله عليه وسلم وهو بينهم يصدر الأوامر ويستجيبون دون ترددها لها ثم يقول فى أبيات تالية

تدلى عليه الروح من عند ربه ينزل من جو السماء ويرفع
نشاوره فيما نريد وقصرنا إذا ما اشتهى أنا نطيع ونسمع

وقال رسول الله لما بدوا لنا ذروا عنكم هول المنيات واطمعوا
وكونوا كمن يشرى[1] الحياة تقربا إلى ملك يحيا لديه ويرجع
ولكن خذوا أسيافكم وتوكلوا على الله إن الأمر لله أجمع
فسرنا إليهم جهرة فى رحالهم ضحيا علينا البيض لا نتخشع
بملمومة فيها الشنور والقنا إذا ضربوا أقدامها لا تورع
فجئنا إلى موج من البحر وسطه أحابيش منهم حاسر ومقنع
ثلاثة آلاف ونحن نصية ثلاث مئين إن كثرنا وأربع
نغاورهم تجرى المنية بيننا نشارعهم حوض المنايا ونشرع

(١) يشرى أى يبيع وهو اشاره إلى قوله تعالى «ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون ضحيا تصغير ضحى وهو وقت الضحى والبيض بالكسر السيوف وإذا كانت بالفتح فهى الخوذ.

تهادى قسى النبع فينا وفيهم ... وما هو إلا اليثربى المقطع
ومنجوفة حرميه صاعدية ... يذر عليها السم ساعة تصنع
تصوب بأبدان الرجال وتارة ... تمر بأعراض البصار تقعقع
وخيل تراها بالفضاء كأنها ... جراد صبا فى قرة ينزبع
فلما تلاقينا ودارت بنا الرحى ... وليس لأمر حمه الله مدفع
ضربناهم حتى تركنا سراتهم ... كأنهم بالقاع خشب مصرع
لدن غدوة حتى استفقنا عشية ... كأن ذكانا حر نار تلفع
وراحوا سراعاً موجفين كأنهم ... جهام هراقت ماءه الريح مقلع
ورحنا وأخرانا بطاء كأننا ... أسود على لحم نبيشة ظلع
فنلنا ونال القوم منا وربما ... فعلنا ولكن ما لدى الله أوسع
ودارت رحانا واستدارت رحاهم ... وقد جعلوا كلاً من الشر يشبع
ونحن أناس لا نرى القتل سبة ... على كل من يحمى الذمار ويمنع
ولكننا نقلى القرار ولا نرى الـ ... فرار لمن يرجو العواقب ينفع[1]

وفى تلك الأبيات يستمر فى وصف القوة المعنوية التى اتصف بها

(١) الملومة هى الكتيبة المجتمعة والسنور لباس يستعمله المحارب كالدرع، وتورع أى تكلف وأحابيش نسبة إلى حبش وهو جبل أسفل مكة ويعنى هنا القرشيين والنصية أى الخيار والأشراف ونقاورهم أى نغير عليهم من النحارة ونشارعهم أى نشاربهم والنبع شجر تصنع منه القسى واليثربى أى الأوتار المنسوبة إلى يثرب والمجوفة السهام المثقفة والحرمية نسبة إلى أهل الحرم والصاعدية نسبة إلى صاعد وهو صانع معروف بأتقان صناعة السهام تصون أى تقع، البصار أى الحجارة اللينة، تقعقع أى تصوب، الصبا هى الريح الشرقية، القرة أى البرد يتربع أى يجئ ويذهب، حمة الله أى قدرته، سراتهم أى خيارهم، المصرع أى المطروح على الأرضى، القاع أى المنخفض من الأرض لدى أى الموضع الذى هو الغاية - ذكانا أى استعمال نار حربنا - تلفع أى يشتمل حرها وتلهبها على دنامنها وموجفين أى مسرعين والجهام السحاب الذى أفرغ ماءه بيشه موضع كثير الشجر - ظلع هو الثقاقل فى المشى الأعرع صفة للأسد إذا شبع والسية العار والزمار يجب على الرجل حمايته ويقلى أى نترك وفر أى هرب.

المسلمون فى الحرب ومن منطلق وجود الرسول بينهم الذى يلقى الأوامر وعليهم الاستجابة والطاعة فهى أوامر مؤيدة من السماء فجبريل ينزل عليه يمده بتأييد من ربه وهم إذا تعرضوا لأى مأزق أو التبس عليهم أى أمر فيطلبوا المشورة دائماً من رسول الله الذى كان دائماً يمدهم بالتقوى وعدم خشية الأعداء حين بدوا لهم بكثرتهم فأمرهم ببيع الحياة الدنيا مقابل الحياة الخالدة عند الله وكانت بصحة الرسول لهم أن يعدوا ما يستطيعوا من الأسلحة ثم يتوكلوا على الله فهو نعم المولى ونعم النصير ثم يصف زحف المسلمين فيقول إن الجيش بدأ فى الزحف بعد استكمال مقومات النصر من تعبئة روحيه ومادية وسار إلى الأعداء جهرة فى وقت الضحى بعد أن لبس الفرسان الشجعان الخوذ وأعدوا السلاح لقتلهم والنيل منهم ثم يصف الشاعر جيش العدو فقد واجه المسلمون كتيبة من كفار قريش لبس أفرادها الدروع وأمسكوا الرماح ومهما قتل المسلمون منهم فعددهم لا يزال كبيراً وهو يشبه موج البحر وكان يتكون من أحابيش قريش خرجوا إلى المعركة ما بين حاسر عن رأسه ووجهه وما بين مقنع ثم يذكر عدد المقاتلين من جيش العدو ومنهم ثلاثة ألاف محارب أما المسلمون فما بين الثلاثمائة والأربعمائة مجاهد من خيار العرب ثم ينتقل بعد ذلك إلى وصف المعركة وبدايتها وأن المسلمين بدأوها بالإغارة على جيش العدو وعلى الرغم من أن قوة الله كانت مع المؤمنين إلا أن الشاعر ينصف أعداءه لأن كلا من الجيشين يحاول أن يسقى جنود الآخر كؤوس المنايا بكافة أنواع الأسلحة من أقواس ورماح وسيوف ويصف الشاعر السهام التى كان الجيشان يتراشقان بها فهى سهام متقنة صنعت فى مكة المكرمة بيد صانع عرف بإتقانه للصنعة وقد سقيت هذه السهام ساعة صنعها بالسم الناقع لتصيب من توجه إليه وعندما تنطلق هذه السهام قد تصيب أبدان

المحاربين ولكنها أحياناً تخطئ الهدف فتقع على دروعهم وهى تحدث أصواتاً من شدة ارتطامها بهذه الأجسام الصلبة ويصف الشاعر كثرة الخيل التى اشتركت فى المعركة وشبهها فى كثرتها بالجراد الذى يذهب ويجئ مع ريح الصبا وعندما اشتعلت الحرب ودارت رحاها فى ميدان القتال وهذا قدر مقدور، إذ ليس لأمر يقدره الله من راد، ضربنا بسيوفنا ورماحنا وسهامنا جيش العدو حتى طرحنا على الأرض أشرافهم فصاروا كأنهم خشب مصرعة وبقيت الحرب مستمرة حتى الليل فإذا ميدان المعركة كأنه نار تلتهم كل من يقترب منها ثم يرسم الشاعر صورتين متقابلتين ليوضح حلاوة النصر ومرارة الهزيمة فى البيت ٣٣، ٣٤ فيقول إن فلول الأعداء المنهزمة قد راحت تجرى مسرعة كأنها سحاب زاد سرعته ذهاب الماء منه، بينما تجد جيش المسلمين راح يمشى بكبرياء النصر فى تؤدة وبطء مثل أسود بيشه تهتز فى مشيتها بعد أن شبعت من فريستها ثم يصف الأعداء ويقول أن كلا من الطرفين قد نال من الآخر، فقد تغلب المسلمون حيناً وتغلب العدو حيناً أخر وهذا موقع فى الحروب ولكن المؤمنين ثوابهم أوسع من كل مشقة يلاقيها جنودهم فى الحروب وهذا بخلافٍ الكفار فلهم عذاب شديد مقابلة بين ثواب كل منهما فى الآخرة ثم يصف المؤمنين مفتخراً بقوله نحن أناس لاتهاب القتال ولا نعده عاراً ما دام غايته الحفاظ على ديننا ولكننا نكره الفرار من المعركة لأن فيه العار.

ثم يقول:

جلاد[1] على ريب الحوادث لا ترى على هالك عينا لنا الدهر تدمع

(١) جلاد جمع جليد وهو الصلب، وريب الحوادث أى صروفها، ولا نعيا أى لا نتعب، والشهاب شعلة نار ساطعة وجمعه شهب ويسفع أى يحرق ويغير لونه وابن الزبعرى هو عبد الله بن الزبعرى شاعر قريش والذى يرد عليه فى هذه المناقضة.

بنو الحرب إن نظفر فلسنا بفحش ولا نحن من أظفارها نتوجع
وكنا شهابا يتقى الناس حره ويفرج عنه من يليه ويسفع
فخرت على ابن الزبعرى وقد سرى لكن طلب من آخر الليل متبع
فسل عنك فى عليا معد وغيرها من الناس من أخزى مقاماً واشنع
ومن هو لم نترك له الحرب مفخراً ومن خده يوم الكريهة أضرع
شددنا بحول الله والنصر شدة عليكم وأطراف الأسنة شرع
تكر القنا فيكم كأن فروعها غزالى مزاد ماؤها يتهزع
عمدنا إلى أهل اللواء ومن يطر بذكر اللواء فهو فى الحمد أسرع
فخانوا وقد أعطوا يدا وتخاذلوا أبى الله إلا أمره وهو أصنع

يصف جلاد المؤمنين أمام صروف الدهر فيقول: فلا ترى لنا عينا تدمع على هالك منا وما ذلك إلا أيماناً صادقاً وتصديقاً بقضاء الله وقدره ثم يقول: نحن لا نهاب الموت فنحن رجال الحرب لا يصيبنا جزع ولا خوف إن نالت الأعداء منا ولا الجزع إن نالت المعارك منا وقد شبه الشاعر جماعة المسلمين بالشهاب لما لهم من ضرر فى الأعداء فيقول إننا فى الحرب كنا كقطعة النار التى يتقى الناس اقتحامها وكان هدفنا هو كسر شوكة الأعداء.

ثم يلتفت الشاعر إلى خصمه الذى يرد عليه فى مناقضته قائلاً له: لقد فخرت على يا ابن الزيعرى وبلغنى زعمك ولكن عليك أن تسأل أشراف قومك وغيرهم لتعرف الحقيقة منهم وهو انك من أسفل السافلين بما يحيط بك من خزى وعار وستعرف من هو الذى لم تترك الحرب له مجالاً للفخر ومن هو الذى بات خده مصعراً للناس ذليلاً ثم يبين ويوضح ذلك قائلاً لقد شددنا عليكم شدة بحول الله ورماحنا مشرعة للطعن فتركنا فى أجساد قتلاكم طعنات متسعة تنزف الدماء وكأنها أفواه القرب السائلة ويختم الشاعر مناقضته بما

يدل على أنهم مدربون يعرفون طريق النصر فقد عمدوا إلى حملة اللواء فى المعركة وصوبوا إليهم وأهلكوهم طعناً وتقتيلاً فتخاذلوا وأسلموا صاغرين ويأبى الله إلا أن يعز المسلمين ويذل الكافرين.

وهكذا نرى مناقضة كعب تتمثل فيها خصائص شعر النقائض الاسلامية من حيث تداخل المعانى الإسلامية مع المعانى الجاهلية والمتمثلة فى فخره بقومه إلى درجة المبالغة وتهديد المشركين أما المعانى الاسلامية فتتمثل فى ذكر الرسول ونزول الروح إليه من عند الله وتمتاز المناقضة بتكرار الأغراض وتداخل بعضها مع بعض فهو يتحدث عن الرحلة ثم يتحدث عن شجاعة المسلمين ثم يمدح ويهجو ويفخر ثم بين تفاصيل المعركة؛ المقدمة خمسة أبيات تحدث فيها عن رحلته فى الصحراء الشاسعة ثم يفخر بقومه وفخره فيه عفة فى الألفاظ فهو وإن كان عَيَّر قريشاً بيوم بدر فهو لردعهم وقلب القول عليهم وقد رأيناه يعدد مآثر قومه إلى درجة المبالغة ثم يهدد ويتوعد المشركين ويفخر بصبر قومه فى الحرب ومن ناحية أخرى نجد المعانى الإسلامية تتأثر بالدين الجديد وقد ترددت فى القصيدة فالرسول يقود المسلمين وينزل عليه الروح ويأمرهم الرسول ببيع الدنيا مقابل الأخرة ثم يأمرهم بالتوكل على الله كلها معانى اسلامية تذكر فى كثير من الآيات القرآنية.

وتميزت المناقضة بالصدق الموضوعى: حيث كان وصفه للمعركة وصفاً صادقاً حيث تناوبت الهزيمة بين المسلمين والأعداء فالحرب سجال بيننا فهو يسند الفعل للمسلمين مرة وللمشركين أخرى احقاقاً للحق وتقريراً للواقع ولقد أثر فى ذلك استخدام الأفعال التى تدل على المشاركة مثل (نغاورهم،

تشارعهم) وهذا الشعر عرف فى العصر الجاهلى باسم «المنصفات».

اعتماد كعب على الخيال فى توضيح الصور الفنية:

وقد استخدم كثيراً من التشبيهات فشبه غبار الصحراء الأسود بغبار المعركة تملأ الجو بترابها ويشبه الابل على الأرض وقد بدت عظامها بنقوش قماش بسطه التاجر للبيع وشبه الخيل فى انتشارها بالجراد والتشبيه عنده يتخلله شئ من الطرافه لاشتماله على معنى مزدوج فالجراد يطير فى الفضاء من جهة والجراد يضرب به المثل فى الكثرة من جهة أخرى.

ويظهر الابداع عند كعب فى رسم صورة جميلة لمفارقة عجيبة بين فلول جيش المشركين التى ولت هاربه هلعاً وجزعاً كأنهم سحاب أفرغ ماؤه وعملت الريح على ازدياد سرعته وفى البيت الثالث والثلاثون والرابع والثلاثون.. شبه المسلمين يسيرون متثاقلين تملأ الثقة نفوسهم بما من الله عليهم من نصر بأسود شبعت من لحم وادى بيشه وفى البيت ٤٢ يشبه قوة المسلمين على الأعداء فيشبههم بالشهاب المملوء بالنار وقد تخللت المناقضة الاستعارة التصريحية منها والمكنية.

وفى البيت الثلاثون استعارة تصريحية وفى البيت ست وثلاثون استعارة تصريحية أما المكنية ففى البيت الأربعين واستخدم الكتابة فى البيت الثالث كناية عن صعوبة الطريق وفى البيت الخامس والأربعين كناية عن الهزيمة والذل وفى أخر بيت فى المناقضه فى الشطر الأول كناية عن الهزيمة والاستسلام.

ولقد استخدم كثيراً من المحسنات البديعية منها الترادف فى البيت الثانى ترادف بين قتام ونقع لأن كل منهما تعنى الغبار وفى البيت الثالث ترادف بين البزل والعراميس كلاهما معناها الجمال الفتيه القوية ولقد استخدم الجناس الناقص بين بيض وبيض فى البيت الخامس والعرض والعرض فى البيت الرابع عشر واستخدم التضاد فى البيت السادس عشر بين ينزل ويرفع وبين التدلى والتنزل ترادف وفى البيت ثلاث وعشرون تضاد بين حاسر ومقنع.

وفى البيت ست وعشرون بين فينا وفيهم وقد كان دقيقاً فى اختيار الألفاظ التى تعبر عن المعنى الذى يقصد إليه فاختار الفعل يفظعوا الذى من خلاله يبين وصول الإنسان إلى مرحلة الهلع.

(٣) مناقضة أخرى لكعب يرد فيها عمرو بن العاص:

وفى إطار افتخار المشركين بما حققوه من نصر فى أحد فقال عمرو بن العاص:

خرجنا من الفيفا عليهم كأننا ... مع الصبح من رضوى الحبيك المنطق
تمنت بنو النجار جهلا لقاءنا ... لدى جنب سلع والأمانى تصدق
فما راعهم بالشر إلا فجاءة ... كراديس خيل فى الأزقة تمرق
أرادوا لكيما يستبيحو قبابنا ... ودون القباب اليوم ضرب محرق
وكانت قبابا أو منت قبل ما ترى ... إذا رامها قوم أبيحوا وأحنقوا
كأن رءوس الخزرجيين غدوة ... وأيمانهم بالمشرفية يروق[1]

(١) السيره ق ٢ ص ١٤٣ هى الفقر المجدب، رضوى اسم جبل المنطق المخزم، سلع اسم جبل فى ظاهر المدينة البروق نبات له أصول تشبه البصل الخزرجيين الأوس والخزرج معا.

الملاحظ على مناقضة عمرو بن العاص العصبية القرشية فهو يرى أن الحرب التى دارت ليست دفاع عن العقيدة ولكن دفاع عن المنزلة والمكانة وقد جنوا عاقبة حمقهم بالهزيمة الذى أوقعته بهم جموع قريش وخيلها.

وتكونت مناقضة عمرو من ست أبيات ونهض كعب بمناقضة يرد فيها عليه بنفس عدد الأبيات والوزن والقافيه فيقول:

ألا أبلغا فهرا على نأى دارها وعندهم من علمنا اليوم مصدق
بأنا غداة السفح من بطن يثرب صبرنا ورايات المنية تخفق
صبرنا لهم والصبر منا سجية إذا طارت الأبرام نسمو ونرتق
على عادة تلكم جرينا بصبرنا وقدما لدى الغايات نجري فنسبق

لنا حومة لا تستطاع يقودها نبى أتى بالحق عف مصدق
ألا هل أتى أفناء فهر بن مالك مقطع أطراف وهام مفلق[1]

ومناقضة كعب فيها ردٌ حاسمٌ على عمرو بن العاص الذى افتخر بقريش وظهرت عصبيته لها وكان فخره يظهر فيه العصبية للمكانة والمنزلة ورأى أنها حرب على العرش لا حرب يدافع من خلالها عن العقيدة الدينية وقد رد كعب بنفس الوزن والقافيه وعلى قدر الأبيات فإذا كان عمرو بن العاص فخر بنصر قومه فى أحد ونال من بنى النجار ووصف مشاهد هزيمتهم فنجد كعباً يتصدى له بمناقضته والتى يظهر من خلالها الموقف حينما أصاب قومه مكروه ولكن هذا لم يزعزعهم عن موقفهم فى ميدان القتال وما اتسموا به من شجاعة وصبر فى مواجهة الموت وعدم الفرار منه وهذا

(١) السيرة ق ٢ ص ١٤٢ الأبرام أى اللئام واحد هابرم وأصله الذى لا يدخل مع القوم فى الميسر للؤمه، نرتق أى نسد ونصلح، أفناء فهر أى جموعهم المختلطة بمن ليس منهم هام جمع هامة وهو الرأس.

ما عرف عنهم وسمة تميزهم منذ القدم ويعقد موازنة بين ما تحدث عنه عمرو بن العاص من مكانة قريش ومنزلتها وبين هدفهم من هذه الغزوة والتى هى من منطلق إيمانهم بالرسالة المحمدية وقد مدح الرسول فى البيت قبل الأخير فى سياق الفخر والإشادة بالمسلمين ولقد كانت بدايته بارعة الذى انطلق منه إلى الفخر بصبر المسلمين على الشدة التى أصابتهم وهو صبر متأصل فيهم وليس مكتسباً وهذا الصبر سيدفعهم إلى الإصلاح لما أفسدته الحرب ومما لا شك فيه إن هذا الإصلاح سيكون له الوقع الشديد على الأعداء.

وتخللت مناقضة كعب مفارقة عجيبة فى الإبداع وذلك حينما جعل الصبر فيهم سجيه وطبيعة ومن خلاله يسمون إلى أعلى الصفات فى الوقت الذى يطير فيه الأعداء اللئام ومما لا شك فيه أن التعبير «بطارت» يفصح عن شدة رهبتهم وخوفهم الذى يدفعهم للهروب الغير طبيعى فهو فرار كأنهم طير. كما ظهرت مفارقة أخرى حينما عقد كعب مقارنة بين عزة قريش التى تحدث عنها عمرو وبين عزة الإسلام التى فاقها لأنها عزة تحت قيادة العقيدة الدينية وليست عزة المكانة ومن هنا تظهر الروح الإسلامية فى مناقضة كعب أما عمرو فتبدو فى مناقضته الروح الجاهلية التى تتمسك بالعصبية القبلية فهو يتعصب لمكانة قريش ومنزلتها لا لدينها وديانتها وهكذا نجد فى مناقضته أنه لا يختلف عما كان عليه فى العصر الجاهلى ولكن المعانى الاسلامية واضحة فى مناقضة كعب فلا عجب فى ذلك فكعب من أكثراء الشعراء فى عصر صدر الاسلام الذين تأثروا بالقرآن وبحديث الرسول لذلك نرى فى آثاره المعانى الاسلامية وبعض الألفاظ القرآنية»[1] ولقد استخدم كعب كثير من

(١) أدب صدرالإسلام ص ١١١ للدكتور واضح الصمد الطبعة الأولى ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع بيروت - لبنان.

المحسنات البديعية ومن ذلك المقابلة الرائعة من جانب كعب حينما رد على ادعاء عمر بن العاص من إصابتهم لبنى النجار وبين ما وجهه المسلمون من ضربات للمشركين وذلك كان فى البيتين الثانى والثالث ورد كعب على خصمه كان فى البيت الأخير وهكذا أبدع كعب فى الرد على خصمه أيما إبداع فكان أكثر من عمرو بن العاص ثقة وابداعاً وبلاغة.

٤- مناقضة لكعب يرد فيها على ثلاثة من الشعراء المشركين فى غزوة أحد

ومما تجدر الإشارة إليه فى هذا الإطار أن كعباً قال مناقضة يرد فيها على ابن الزبعرى التى مطلعها.

ألا ذرفت من مقلتيك دموع وقد بان من حبل الشباب قطوع[١]

ونقيضتان لضرار بن الخطاب مطلع الأولى منهما:

إنى وجدك لولا مقدمى فرسى إذ جالت الخيل بين الجزع والقاع

ومطلع الثانية

لها أتت من بنى كعب مزينة والخزرجية فيها البيض تأتلق

ومعهما نقيضة ثالثة لعمرو بن العاصى مطلعها

لما رأيت الحرب ينـ زر شرها بالرصف نزوا[٢]

هذه النقائض الثلاث رد عليهم كعب بنقيضة واحدة عدد أبياتها ثلاث وعشرين بيتاً وهو يخالفهم فى القافيه والتى يقول فيها.

إن تقتلونا، فدين الحق فطرتنا والقتل فى الحق عند الله تفصيل[٣]

---

(١) السيرة ق ٢ ص ١٤١.
(٢) نفسه ص ١٤٥.
(٣) نفسه ق ٢ ص ١٤٥.

أبلغ قريشا، وخير القول أصدقه والصدق عند ذوى الألباب مقبول
أن قد قتلنا بقتلانا سراتكم أهل اللواء، ففيم يكثر القيل
ويوم بدر لقيناكم لنا مدد فيه مع النصر ميكال وجبريل
فلا تمنوا لقاح الحرب واقتعدوا إن أخا الحرب أصدى اللون مشغول
إن لكم عندنا ضربا، تراح له عرج الضباع له خدم رعابيل
إنا بنو الحرب نمريها وننتجها وعندنا لذوى الأضغان تنكيل
تلقاكم عصب حول اللبن، لهم مما يغدون للهيجا سرابيل
من جذم غسان، مسترخ حمائلهم لاجبناء، ولا ميل معازيل
يمشون نحو عماءات القتال كما تمشى المصاعبة الادم المراسيل
أو من مثل مشى أسود الطل ألثقها يوم رداذ من الجوراء مشمول

فى كل سابغة، كالنهى، محكمة قيامها فلج كالسيف بهلول
ترد حد قران النبل خاسئة ويرجع السيف عنها وهو مفلول[1]

وكانت مناقضة كعب فيها قلب لمقولة الشاعرين بأن قريشا قتلت من المسلمين فى يوم أحد بقوله: إننا قتلنا بقتلانا سراة القوم فيكم، وأهل اللواء

(١) الديوان ص ٢٥٥ سراة القوم أى أعلاهم وأهل اللواء هم بنو عبد الدار من مشركى قريش وكانوا أصحاب اللواء فى بدر، ولقاح الحرب أى زيادتها ونموها، وأصدى اللون أى لونه مشرب السواد بالحمرة، تراح أى تفرح والخذم قطع اللحم، والرعابيل أى المنقطعة وسرابيل جمع سرجال وهى الدرع والحذم أى الأصل وغسان قوم الشاعر ومسترخ خمائلهم كناية عن أمتهم وعدم خوفهم والميل هو الذى لا سلاح معه والمعازيل جمع معزل وهو الذى لا رمح فيه معه المصاعبة الفحول من الابل والأدم جمع أدم وهو البعير الأبيض والمراسيل جمع مرسال وهى الناقة السهلة السير والظل المطر الضعيف وألثقها أى بلها والرذاذ صغار قطر المطر والجوزاء نجم معروف والمشمول الذى هبت فيه ريح الشمال والأسود أقوى ما يكون فى مثل هذا اليوم والسابغة أى الدرع والنهى أى العديد وقيامها القائم بأمرها والفلج الذى يعلو أصحابه ويفوز عليهم والهلول العزيز الجامع والقران، النبل عقوبة من عمل رجل واحد.

فعلام الضجيج والصخب وكثرة الفخر؟ وهو يقلب فخرها بالنصر الذى تحقق لهم فى بداية الغزوة أنه عارض وقد كبتهم بالإشارة بيوم بدر ذلك اليوم الخالد فى حياة الدعوة الإسلامية وهو اليوم الذى نصرهم الله فيه وهم فئة قليلة وذلك بأن أعزهم بالملائكة التى أمدهم الله بها من السماء وقد نوه كعب بذلك المدد الإلهى مفتخراً بما فضلهم الله به وهو يستمد المعانى من الآيات القرآنية فى سورة الأنفال تلك الآيات التى عددت فضائل الله على المؤمنين فى ذلك اليوم منها النصر لهم وربطه على قلوبهم وتثبيت أقدامهم فى ساحة المعركة فقد أمدهم الله بعون من السماء ملائكة الرحمن يتقدمهم ميكائيل وجبريل ويتضح من قوله.

ان تقتلونا، فدين الحق فطرتنا والقتل فى الحق عند الله تفضيل

فكعب يقلب فى مناقضته قولهم فهم قد رأوا أن القتل سبة وعاراً وهو يرى أن القتل شهادة فى سبيل الله ولقد كان استخدامه لأسلوب الشرط وجوابه أسلوباً رائعاً فى تفنيد دعاوى المشركين وتخللت المناقضة وصفاً لشجاعة المسلمين ومن خلال ذلك وصفه لضرب المسلمين القاطع والذى ينتج عنه كثرة القتلى وذلك بسبب ثباتهم وينتج عن هذه الضربة كثرة القتلى التى تقدم لحومهم وجبه شهية للضباع الجائعة وما ذلك إلا لتقطيع أواصر الكفر وقد تخللت المناقضة كثير من الصور الخيالية ومنها الكناية الجميلة فى قوله إنا بنو الحرب (البيت) فهو كناية عن قوة ضربهم للمشركين وما يعقبه من تنكيل للأعداء ويظهر تشخيصه للحرب على أنها ناقة يستدرونها ويولدونها وما تدر وتنتج إلا العذاب والبلاد والنكال وهى بذلك شديدة البلاء عليهم ويتضح ذلك فى قوله:

إنّا بنو الحرب، نمريها وننتجها وعندنا لذوى الأضغان تنكيل

إن ينج منها ابن حرب بعدما بلغت منه التراقى، وأمر الله مفعول
فقد أفادت له حلماً وموعظة لمن يكون له لب ومعقول
ولو هبطتم ببطن السيل كافحكم ضرب بشاكلة البطحاء ترعيل

وهو يشير إلى أن ابا سفيان قد نجا منها بعد أن كاد يموت من الرعب ومن هنا فهو من خلال وصفه لأبى سفيان يحذر الكفار من أبناء الحرب الذين تغذوا منها لأن ضربتهم ستلحق بهم وأينما كانوا ولو هبطوا فى بطن الوادى وقد خص قومه (بنى غسان) لوصفهم بالشجاعة وفى قوله «مسترخ حمائلهم» كناية عن شجاعتهم التى تقودهم إلى الأماكن الصعبة ولكن مشيهم إليها مشى الجمال المسرعة مما يدل على ثبات القلب ومشيتهم أيضاً كمشية الأسود التى تسير فى الطل فهى مبتلة من قطرات المطر جزاء الريح التى تهب فى أثناء سيرهم وقد وصف أدوات الحرب من دروع فشبهها بتموجات صفحة الغدير.

وهكذا يسترسل كعب فى الألفاظ الجميلة الموضوعة على قدر المعانى بالإضافة إلى الخيال البارع الذى تراوح ما بين تشبيه وكناية فهى قصيدة تمثل انسجاماً تاماً بين أبياتها وفقراتها من بدايتها إلى نهايتها فهى بحق «تمثل عمود الشعر العربى»[1].

ومن هنا يتبين لنا كثرة مناقضات كعب فى غزوة أحد ويذكر أحد الباحثين العلة فى ذلك فيقوله «وعلة ذلك واضحة لا تحتاج إلى جهد فى معرفتها، إذ كان تعادل القوى بين الجبهتين المتصارعتين هو أبرز النتائج التى أفرزتها أحد» فجبهة المسلمين فى المدينة تجاهد حفاظاً على وجودها وتعزيز

(١) كعب بن مالك الأنصارى محمد على الهاشمى ص ٢٣٩ طبعة أولى ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

مكانتها بعد انتصارها فى بدر، وجبهة المشركين فى مكة قد استعادت ثقتها فى قوتها..... بعد انتصارها فى أحد - وكان هذا الحدث لشعرائها فاندفع كثيرون منهم إلى المشاركة فى تلك الحرب اللسانية»[١].

مناقضته فى الرد أيضاً على عبد الله بن الزبعرى فى غزوة الخندق

وقد نهض عبد الله يفتخر بموقف الكفار يوم الخندق ويتطاول على المؤمنين فيقول:

حتى الديار محا معارف رسمها طول البلى وتراوح الأحقاب
فكأنما كتب اليهود رسومها إلا الكنيف ومقعد الأطناب

قفرا كأنك لم تكن تلهو بها فى نغمة بأوانس أتراب
فاترك تذكر ما مضى من عيشة ومحلة خلق المقام يباب
واذكر بلاء معاشر شكرهم ساروا بأجمعهم من الأنصاب[٢]

فيبدؤها بمقدمة تقليدية فى أربعة أبيات يصف فيها الأطلال والديار ورسومها التى عفت ويذكر الحياة الماضية فيها وما كان له فيها من الأوانس ثم ينتقل إلى وصف الجيش الذى خرج من مكة إلى يثرب ثم يذكر أنصاب مكة فيقول:

أنصاب مكة عامدين ليثرب فى ذى غياطل جحفل جبجاب[٣]

---

(١) شعر النقائض فى السيرة النبوية ص ٧٦ شوقى أحمد طبعة أولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م.
(٢) السيرة النبوية ق ٢ ص ٢٥٧، ٢٥٨.
(٣) السيرة النبوية جـ ٣ ص ٢٨٠ لابن هشام تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد طبعة القاهرة دار الفكر ١٩٣٧م.
الأنصاب حجارة كانوا يذبحون لها ويعظمونها، ذو غياطل جيش كثير الأصوات والغياطل جمع غيطله وهى الصوت، جحفل جباب أى ضخم كثير العدد، الحزون جمع حزن وهو ما رتفع من الأرض، شوارب أى ضامرة مجنونة أى مقودة، السلهبة أى الطويلة.

يـدع الحـزون مناهجـاً معلومـة فـى كـل نشـر ظـاهر وشـعاب
فيهـا الجيـاد شـوازب مجنوبـة قـب البطـون لواحـق الأقـراب
مـن كـل سـلهبة وأجـرد سـلهب كالسـيد بـادر غفلـة الرقـاب

وبعد أن يذكر الأطلال يذكر أنصاب مكة أى الحجارة التى كانوا يعظمونها وهو بذلك يعلن شركه وتمسكه بالكفر ثم يفتخر بجيش الكفار وما فيه من خيل عتاق وخير القواد عيينة بن حصن الغزارى وصخر بن حرب القرشى ويقول فى ذلك

جيـش عيينـة قـاصد بلوائـه فيـه وصخـر قـائد الأحـزاب
قرمـان كـالبدرين أصبـح فيهمـا غيـث الفقـير ومعقـل الهـراب

ثم يقول ابن الزبعرى عن حصارهم للمدينة أربعين يوماً

حتـى إذا وردوا المدينـة وارتـدوا للمـوت كـل مجـرب قضـاب
شـهراً وعشـراً قـاهرين محمـداً وصحابه فـى الحرب خير صحاب
نـادوا برحلتهـم صبيحـة قلتـم كدنـا نكـون بهـا مـع الخيـاب
لـولا الخنـادق غـادروا مـن جمعهـم قتلـى لطـير سـغب وذئـاب

يذكر أن الكفار حاصروا الخندق أربعين يوماً قاهرين محمداً صلى الله عليه وسلم وصحبه مع ما عرفوا بـه من بطولة فى الحرب حتى هموا بـالرحيل قبـل أن يحققـوا غـايتهم ويقـول لـولا تلـك الخنـادق لفتكوا بهم وأهلكوهم ويبدو إن الكلام إنقطع يـا ابن الزبعرى فقام كعب بالرد عليه فيقول:

أبقى لنا حدث الحروب بقية من خير نحلة ربنا الوهاب
بيضاء مشرقة الذرى ومعاطنا حم الجذوع غزيرة الأحلاب
كا للوب يبذل جمها وحفيلها للجار وابن العم والمنتاب
ونزائعا مثل السراح نمى بها علف الشعير وجزة المقضاب
عرى الشوى منها وأردف نحضها جرد المتون وسائر الآراب
قوداً تراح إلى الصياح إذا غدت فعل الضراء تراح للكلاب
وتحوط سائمة الديار وتارة تردى العدى وتؤوب بالأسلاب
حوش الوحوش مطارة عند الوغى عبس اللقاء مبينة الأنجاب

فلا يبدأ بالمقدمة التقليدية كما بدأ الخصم بل نراه يدخل بلا مقدمات فى تفاصيل الحرب فيذكر ما أبقته لهم الحروب من ابل ضخمة تدر الخير الوفير ويصف الابل فيما يقرب من ستة أبيات يتناول فيها أصالتها وقوتها وسرعتها وحسن تدريبها على خوض المعارك ثم يصف أدوات الحرب من سيوف ورماح ووصف الكتيبة فى ثمانية أبيات يقول فيها

وصوارم نزع الصياقل[1] وغلبها وبكل أروع ماجد الأنساب
يصل اليمين بمازن متقارب وكلت وقيعته إلى خباب
وكتيبة ينفى القران قتيرها وترد جد قواحذ النشاب
جاوى ململمة كأن رماحها فى كل مجمعة ضريمة غاب

(١) الصوارم هى السيوف القاطعة، الصياقل جمع صيقل وهو شحاذ السيوف وجلاؤها غلبها أى خشونتها وما يعلوها من الصدأ، مارن رمح لين، وقيعته أى صفته، خباب اسم قين، القران تقارن النبل واجتماعه، القتير مسامير حلق الدرع قواحذ النشاب أى النبال التى تصيب الأفخاذ، جأوى وهى التى يخالط سوادها حمرة، ململمة أى مجتمعة، ضريبه أى لهب متوقد.

أعيت أبا كرب وأعيت تبعا وأبت بسالتها على الأعراب

فهو يصف الرماح والسيوف والأقواس أنها كلها أصبحت ذات حنكة فلا يقربها كهام ولا تؤثر فيها الأزمان ومما لا شك فيه إن هذه الصورة من ابتكار كعب ولم يسبقه أحد فيها ومما تجدر الإشارة إليه فى هذا الإطار أن إفاضة كعب فى وصف أدوات الحرب ما بين ابل وخيل عتيقه وسيوف ورماح مدربة وجيش على درجة من التدريب أن يقابل فخر ابن الزبعرى بجموع الأحزاب فى نقيضته وأن يتفوق عليه تفوقاً بارزاً.

ثم يختم كعب أبياته التى يرد بها على خصمه بكلمات إيمانيه قوية تكاد أبياتها تنطق بمعانى الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة التى كان يوجهها القائد الأعلى رسول رب العزة محمد صلى الله عليه وسلم إلى المحاربين وكان كعب بينهم فيرد بكلمات تنطق بالايمان ذاكراً أن هذه الحروب كانت نتيجتها عظيمة على المسلمين إذ علمت الجيوش المؤمنة فنون القتال وأساليبه وحنكتهم على قيادة الحروب على فرسان وخيول عتيقة بما يحقق لهم نصراً دائماً ويقول فى هذا الإطار:

ومواعظ من ربنا نهدى بها بلسان أزهر طاهر الأثواب
عرضت علينا فاشتهينا ذكرها من بعد ما عرضت على الأحزاب
حكما يراها المجرمون بزعمهم حرجاً ويفهمها ذوو الألباب
جاءت سخينة كى تغالب ربها فليغلبن مغالب الغلاب[1]

لقد لخص كعب الغزوة كلها وتحقيق نتائجها فى حقيقة وحكمة بالغة

(١) الديوان ص ١٧٨ سخينة لقب قبيلة قريش فى الجاهلية وذكروا أن قصيا كان إذا ذبح ذبيحة فيطبخ ويطعم الناس فسميت سخينة.

بقوله أن قريشا جاءت لتغالب ربها ولابد أن يغلب الله كل من يغالبه فكان قوله هذا هو فصل الخطاب الذى جعل الرسول صلى الله عليه وسلم يقول فيه: «لقد شكرك الله يا كعب على قولك هذا»(١).

وقد وضح كعب للكفار فى مناقضته أن المؤمنين يتميزون بالذكاء وبعد النظر وقد شكر الله تعالى على تدريبهم على حروب كثيرة وخرجوا منها وقد أتقنوا القتال وفنونه كما خرجت خيولهم عتيقة بعد أن كانت تصطاد وأصبحت تصيد فى دفاع وحشى لم يتيسر لها قبل ذلك بالأضافة إلى إتقان فنون القتال وتخير الأدوات الحربية الصارمه من رماح وسيوف وأقواس.

مناقضته فى الرد على العباس بن مرداس:

وكان العباس قد قال قصيدة يظهر تعاطفه مع بنى النضير ويبدى من خلالها تأزمه لرحيلهم وخراب ديارهم بعد أن كانت عامرة ويصفهم بالمروءة والكرم والإغاثه للملهوف وإجابة السائل ويقول فيها:

لو أن أهل الدار لم يتصدعوا رأيت خلال الدار ملهى وملعبا(٢)
فإنك عمرى هل أريك ظعائنا سلكن على ركن الشطاه فتيأبا
عليهن عين من ظباء تبالة أوانس يصيبين الحليم المجربا
إذا جاء باغى الخير قلن فجاءة له بوجوه كالدنانير مرحبا
وأهلا فلا ممنوع خير طلبته ولا أنت تخشى عندنا أن تؤنبا
فلا تحسبنى كنت مولى ابن مشكم سلام ولا مولى حيى بن أخطبا

(١) السيرة جـ ٢ ص ٢٦١.
(٢) السيرة ق ٢ ص ٢٠٠ - ٢٠١، ظعائن زى نساء فى الهوادج، الشطاه ويتأب موضعان، عين جمع عيناء وهى الواسعة العينين، تبالة موضع باليمن يصبين أى يذهبن بالعقل.

فقد أبدى العباس تعاطفه مع بنى النضير ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن العباس لا ينتمى إلى الجهتين فلا هو من المسلمين ولا هو من اليهود والشئ الطريف أن تقوم معركة شعرية من نوع المناقضة بين شعراء العرب حول بنو النضير من اليهود وهى معركة تدل على مكانة كانت لليهود بين القبائل العربية وعلى المستوى الاقتصادى الذى ظفر به بنو النضير[1] ويبدو من خلال الأبيات التى قالها شعوره بالأسى لرحيل يهود بنى النضير ويعدد فضائلهم ويبدو أن هذا لم يعجب اليهود فنهض منهم من يكذبه ويرميه بالرياء والكذب فيما يقوله وعليه أن يمدح المسلمين لأنهم أحق بذلك فقال «خوات بن جبير ينكر عليه بكاء اليهود لأنه ليس من أقاربهم.

تبكى على قتلى يهود وقد ترى ... من الشجو لو تبكى أحب وأقربا
فمهلا على قتلى ببطن أرنيق ... بكيت ولم تعول من الشجو مسهبا
إذا السلم دارت فى صديق رددتها ... وفى الدين صداداً وفى الحرب ثعلبا
عمدت إلى قدر لقومك تبتغى ... لهم شبها كيما تعز وتغلبا
فإنك لما أن كلفت تمدحا ... لمن كان عيبا مدحه وتكذبا
رحلت بأمر كنت أهلا لمثله ... ولم تلف فيهم قائلا لك مرحبا
فمهلا إلى قوم ملوك مدحتهم ... تبنوا من العز المؤثل منصبا
إلى معشر صاروا ملوكاً وكرموا ... ولم يلف فيهم طالب العرف مجدبا
أولئك أحرى من يهود بمدحه ... تراهم وفيهم عزة المجد ترتبا[2]

فهو ينكر على خوات بن جبير وهو من بنى عمرو بن عوف من

(١) تاريخ النقائض فى الأدب العربى للأستاذ أحمد الشايب ص ١٥٣ الطبعة الثالثة ١٩٩٣م.

(٢) السيرة جـ ٢ ص ٢٠١، ٢٠٢ أرنيق أى موضع، الشجو أى الحزن، المسهب أى المتغير الوجه الكاهنان قبيلا من يهود المدينة يزعمون أنهم من ولد هارون عليه السلام.

الخزرجيين أن يكون بكاؤه لليهود دون أن يدين بالولاء إلى أقاربه من الخزرجيين من بنى جنسه لذلك فهو يرى مدحه لهم كذباً ورياءاً وأن من باب أولى أن يوجه مدحه إلى الملوك والرؤساء فيقول: فإنك إن مدحتهم فيكون أنسب لك لما لهم من فضل عليك فهم لم يردوا سائلاً وهم بمكانتهم العالية وكرمهم المستفيض يستحقوا الشكر[١].

ولكن العباس بن مرادس يجيبه فى مناقضة أخرى ولم يكن قد أسلم[٢] فيقول:

هجوت صريح الكاهنين وفيكم لهم نعم كانت من الدهر ترتبا
أولئك أحرى لو بكيت عليهم وقومك لو أدوا من الحق موجبا
من الشكر إن الشكر خير مغبة وأوفق فعلا للذى كان أصوبا
فكنت كمن أمسى يقطع رأسه ليبلغ عزا كان فيه مركبا
فبك بنى هارون واذكر فعالهم وقتلهم للجوع إذ كنت مجدبا
أخوان أذر الدمع بالدمع وابكهم وأعرض عن المكروه منهم ونكبا
فإنك لو لاقيتهم فى ديارهم لألفيت عما قد تقول منكبا
سراع إلى العليا كرام لدى الوغى يقال لباغى الخير أهلا ومرحبا

فالملاحظ أن المناقضة بينهما تدور حول اثبات المدح والفضل لبنى النضير أو نفيه عنهم واثباته للأنصار أو المسلمين ويستحقون لما أبدى من حزن عليهم أم لا فالمناقضة مختلفة إلى حد كبير عن المناقضات الأخرى التى تعتنى بذكر الأحداث وأسبابها وببيان موقف الكفار من جهة وموقف المسلمين من جهة أخرى وأعتقد أن السبب فى ذلك أن العباس ليس من اليهود وانما هو تاثر بما أصابهم من خلال أنه كان يربطه بهم صلة مودة.

(١) السيرة جـ ٢ ص ٢٠٢.
(٢) تاريخ النقائض فى الأدب العربى للأستاذ أحمد الشايب ص ١٥٥ الناشر مكتبة النهضة.

ويرد كعب على خوات بمناقضة يقول فيها:

لعمرى لقد حكت رحى الحرب بعدما أطارت لؤيا قبل شرقا ومغربا
بقية آل الكاهنين وعزها فعاد ذليلا بعدما كان أغلبا
فطاح سلام وابن سعية عنوة وقيد ذليلا للمنايا ابن أخطبا
وأجلب يبغى العز والذل يبتغى خلاف يديه ما جنى حين أجلبا
كتارك سهل الأرض والحزن همه وقد كان ذا فى الناس أكدى وأصعبا
وشاس وعزال وقد صليا بها وما غيبا عن ذاك فيمن تغيبا
وعوف بن سلمى وابن عوف كلاهما وكعب رئيس القوم حان وخيبا
فبعدا وسحقا للنضير ومثلها إن اعقب فتح أو إن الله أعقبا[1]

والأبيات توضح أن نفس قائلها مملوءة بالغضب والحقد على الكفار من بنى النضير فيعنى بذكر أحداث الإذلال ومصرع بنى النضير ثم يعقد موازنة بين الجيشين فبينما يبرز قهر الأعداء نجده على الجانب الأخر يظهر نصر الإسلام وحرص كعب على قلب ما ذهب إليه «ابن مرداس» فقلب العزة إلى ذلة وقد أتى ببراهين وأدلة توضح إذلالهم وذلك من خلال تعديد أسماء لقاداتهم الذين قادوهم إلى الخزى والتهلكة فى الوقت الذى يظهر فيه نصر المؤمنين المؤيد من رب العزة جلا جلاله والبيت الأخير فيه دعاء بالبعد والسحق عليهم مما يظهر غضبه وكراهيته لهم.

مناقضته فى الرد على سلمة بن الأكوع:

قام سلمه بن الأكوع عندما عرض بالأنصار وذكر التميرات والرغيف فقال:

---

(١) الديوان ص ١٧٦ أجلب أى جمع القوم وصاح بهم، الحزن المرتفع من الأرض، أكدى أى لم ينجح فى سعيه، ان الله أعقبا أى أن جاء الله بالنصر عليهم.

لـــم يغذهـــا مـــد ولا نصيـــف ولا تمـــيرات ولا تعجيـــف[1]
لكـــن غذاهـــا اللبـــن الخريـــف والمحـــض والقـــارص والصريـــف

وهنا استنزلوا كعب بالرد عليه فقال مرتجزاً

لـــم يغذهـــا مـــد ولا نصيـــف لكـــن غذاهـــا الحنظـــل النقيـــف
ومذقـــــة كطـــــرة الخنيـــــف تبيـــت بيـــن الـــزرب والكنيـــف[2]

فقد نقضه على نفس البحر وبنفس القافية مرتجلاً مما يدل على فطنته وذكاؤه وإتقانه لهذا الفن وقد قال أرجوزة أخرى يرد على مرحب اليهودى يوم خيبر إذ يقول:

قـد علمـت خيـبر أننـى مرحـب شـاكى السـلاح بطـل مجـرب
أطعـن أحيانـا وحينـا أضـرب إذا الليـوث أقبلـت تحـرب
إن حمـاى للحمـى لا يقـرب يحجـم عـن صولتـى المجـرب

فرد كعب عليه مرتجزاً فقال:

قـد علمـت خيـبر أنـى كعـب وأننـى متـى تشـب الحـرب[3]
مـاض علـى الهـول جـرى صلـب معـى حسـام كـالعقيق عضـب
بكـف مـاض، ليـس فيـه عيـب يدككـم حتـى يـذل الصعـب

ومما لا شك فيه أن الرجز كان مألوفاً فى الحروب والمناقضة كان هدفها اثارة النفوس، نفوس المحاربين خاصة لأنها حرب نفسية استخدم فيها

(١) الفائق فى غريب الحديث مادة هنأ المد والنصيف ضربان من المكابيل والخريف أراد لبن الخريف الذى لم يخالفه ماء والقارص الذى يقرص اللسان لفرط حموضته والصريف الحار اللبن. والأرجوزة فى السيرة ق ٢ ص ٣٣٣، ص ٤٧٨، ٤٧٩.
(٢) وديوان كعب ص ١٨٣.
(٣) الديوان ص ٢٣٤.

المجاهدون ألسنتهم بالرجز وهو من أسهل البحور عند العرب لسهولة النظم فيه وذلك لتماثل تفعيلاته».

ومن خلال مناقضات كعب بن مالك يمكننا أن نستخلص السمات الخاصة لنقائضه وهذه السمات منها ما يرجع إلى الشكل ومنها ما يرجع إلى المضمون.

أما السمات الفنية التى ترجع إلى الشكل فمنها:

(١) من حيث التقاليد الفنية الموروثة:

الظاهرة العامة التى عمد إليها كعب فى مناقضاته هو الدخول فى الموضوع مباشرة من فخر أو هجاء أو رثاء ثم الرد على الخصم بالمجادلة وتفنيد مقولة الخصم وكشف مراميه وأهدافه وقلب المعنى عليه وغالباً لا يبدأ الشاعر بمقدمة بل يدخل فى موضوع المناقضة مباشرة لأن موقفه النفسى لا يسعفه ولأنه ينشغل بالرد على الخصم فكان كلامه موجهاً إلى تفنيد كلام الخصم وقد اتضح ذلك فى معظم مناقضاته مما يدل على أن معظم ما وصلنا من شعر اسلامى باستثناء أصحاب الدواو ين هو من المقطعات أو النتف قال هذا الشعر أو ذاك إرتجالاً وذلك تعبيراً من موقف جهادى أو استجابة لشعور إسلامى»[1].

ومن ذلك قوله حين انهزم المشركون يوم حنين فكانت قصيدة كعب هى اللسان الرسمى فى الإشاعة بغزو الطائف فقال:

(١) شعر الدعوة الاسلامية فى عهد النبوة والخلفاء الراشدين للدكتور عبد الله الحامد طبعة الرياض ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م.

قضينا من تهامة كل ريبة وخيبر، ثم أجمعنا السيوف
نحيرها ولو نطقت لقالت قواطعهن دوساً بل ثقيفا

(٢) من حيث الوزن والقافية:

نظم كعب مناقضاته من ثمان بحور وهى الطويل والكامل والوافر والبسيط والمتقارب والخفيف والسريع والرمل وهى نفس البحور التى شاعت عند الجاهليين»[١] والتى تتسم بطول النفس هذا إلى جانب بحور أخرى نظم منها ومنها الرجز وذلك لأن مجامل المناقضات وما فيه من مفاخرات ومتافرة ومناظرة بتطلب طول النفس فى الإنشاد»[٢].

وقد التزم كعب بالوزن والقافيه اللذين فرضهما عليه خصمه حيث أن البادئ بالمناقضة منهما هو صاحب الاختيار للوزن والقافية وقد التزم كعب فى معظم مناقضاته بذلك اللهم إلا فى قصيدتين الأولى كان يرد فيها على هبيرة بن أبى وهب وكان رده من بحر الطويل وقافتيها العين فى حين أن مناقضة هبيرة كانت من البسيط والثانية التى رد فيها على عمر بن الخطاب وعمر بن العاص وقد قال كعب المناقضة من نفس بحر عمر بن الخطاب وهو البسيط ولكن اختلفا فى القافيه.

وأعتقد أننا نلتمس العذر لكعب فى الخروج عن المألوف لأنه كان يرد فيها على ثلاث فى وقت واحد فى أعقاب غزوة أحد.

(١) تاريخ الأدب العربى كارل بروكلمان ص ٥٣ ترجمة عبد الحليم النجار طبعة دار المعارف ١٩٦٨م.
(٢) موسيقى الشعر ابراهيم أنيس ص ١٩١ طبعة خامسة مكتبة الأنجلو سنه ١٩٧٨م.

٣- من حيث الألفاظ:

(أ) نلاحظ شيوع الألفاظ الاسلامية فى مناقضاته وقد تبين ذلك فى أكثر من موضع أوضحناها عند الشرح ونذكر منها على سبيل المثال:

شـــهدنا بـــأن اللـــه لا رب غـــيره وأن رســـول اللـــه بـــالحق ظـــاهر

(ب) شاع استخدامه لألفاظ جزلة قوية مع صياغته لعبارات محكمة فصيحة ومن ذلك ما قاله فى أحد منا قضاته.

إنا بنـو الحرب نمريها وننتجها وعندنا لذوى الأضغـان تنكيـل

وقد دعمتها الصور البيانية البديعة وقد وضحنا ذلك عند الشرح لبعض مناقضاته ومما تبين لنا أن معظمها تضمنت بعض الألفاظ التى نحتاج إلى شرح وتوضيح إلا أنها ليست غريبة لورودها فى أشعار القدماء ونحن إذا قيسنا غرابتها بمقياس عصرنا فتعد غريبة أما إذا قسناها بمقدار العصر الذى قيلت فيه فليس غريبه.

٢- من حيث المعانى وصياغتها:

إتسمت معاينه بالسهولة والعذوبة والليونة فكانت بعيدة عن التعقيد وربما هذه المزايا هى التى جعلت بعض الباحثين يصفونها بالركاكة يقول الدكتور الشكعة «الشعر خبت جذوته وتوارت بلاغته فى إبان البعثه النبوية وخلالها»(١).

ويقول الدكتور عبد القادر القط «لو قارنا بين شعر هذه المرحلة والشعر الجاهلى لأدركنا دون عناء، أن هناك بوناً شاسعاً بين الشعرين من

(١) الأدب فى موكب الحضارة الاسلامية لمصطفى الشكعة ص ٥٧.

حيث الأصالة والمستوى وأن الشعر فى صدر الاسلام فقد فى معظمه وبخاصة الشعر السياسى - ما فى الشعر الجاهلى من خيال حبى واقتدار لغوى والنضاق بالطبيعة والمزاوجة بينها وبين مشاعر الإنسان، وأنه فى كثير من وجوهه قد أصبح أقرب إلى النظم منه إلى الابداع(١).

ونقول وإن كانت أقل إبداعاً من الأشعار الجاهلية إلا أن نبل أهدافها يجعلها تتفوق فى الغاية والهدف وصدق من قال إن الشعر يضعف إذا دخل فى الخير وينشط فى الشر فيقول ابن قتيه «الشعر نكد بابه الشر فإذا دخل فى الخير ضعف، هذا حسان فحل من فحول الجاهلية فلما جاء الاسلام سقط شعره»(٢).

٣- جمع بين القصيد والرجز فى مناقضاته

ولقد ارتجل كعب مناقضتين من الأراجيز وهو من أفضل البحور فى هذا الإطار لأنه موافق لمقتضى الحال فالحال كان منافرة ومفاخره ومناظره بينه وبين خصمه «فالحاجة إلى مثل هذا النوع من الشعر يلقى فى أرض المعركة ليبعث الحماس فى نفوس المجاهدين. فيترامون على شفار السيوف وأسنه القنا طلباً لرضوان الله وطمعاً بحنته»(٣) فضلاً عن تميزه بدور كبير فى ظروف القتال فى التحميس ورفع الروح للمحاربين»(٤).

---

(١) فى الشعر الاسلامى والهوى للدكتور عبد القادر القط ص ١٢ دار النهضة العربية بيروت ١٩٧٩م.

(٢) الشعراء الشعراء لابن قتيه جـ ١ ص ٢٦٥ تحيق محمود شاكر طبعة دار المعارف ١٩٦٦م.

(٣) الأدب الإسلامى فى عهد النبوة وخلافه الراشدين ص ٢٧٥ للدكتور نايف معروف دار النفائس الطبعة الأولى ١٤١٠ق - ١٩٩٠م.

(٤) شعر الفتوح الاسلامية فى صدر الاسلام للنعمان عبد المتعال القاضى ص ٢٣٨ الدار القومية للطباعة والنشر.

٤- إلتزم فيها بنقض وقلب المعانى التى يقولها الخصم:

فكانت مناقضاته من ألوان الشعر التى تراشق بها مع الخصم وقد التزم فيها بنقض المعانى والتى جاءت على لسان الخصم وقلبها بأساليب مختلفة على أن تكون غالباً على نفس الوزن والقافية وهذا هو الشأن الذى بنيت عليه المناقضات الأموية فيما بعد «فالمناقضات الاسلامية هى الأساس الأول الذى بنيت عليه نقائض جرير والفرزدق فى العصر الأموى»(١).

٥- تخلى فى بعض مناقضات مما تمنع به الشعر الجاهلى من خيال حيى واقتدار لغوى وإلتصاق بالطبيعة

وهذه سمة عامة ظهرت فى الشعر الإسلامى وقد أشار إلى ذلك معظم الباحثين فرأى بعضهم أن الشعر العربى أخذ فى العهد السابق للإسلام مباشرة يتجه إلى نحو من التفكير جار حول العقائد والدين وأن الشعر إنما يذهب هذا المذهب فى طور شيخوخة فارخصه ذلك وحط من مستواه القديم»(٢).

ومن حيث الأسلوب كانت ضعيفة

نلاحظ أن مناقضاته الأسلوب فيها يميل إلى النثر أكثر من الشعر فليس فيها من عناصر الشعر سوى الوزن والقافيه أما خيال الشعر وفنيته فلا نكاد نشعر منها بشئ ولعل السر فى ذلك يرجع إلى أنه قد شغل بحكاية الأحداث وسردها من جانب وعلى الجانب الأخر شغل بالرد على الخصم وقلب المعانى عليه وهذا الانشغال برواية الأحداث والتعجل بالارتجال فى

(١) الشعر العربى من الجاهلية حتى نهاية القرن الأول الهجرى للدكتور محمد مصطفى هدارة طبعة دار المعارف بمصر ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م ص ٧٩، ٨٠.

(٢) حسان بن ثابت تأليف الدكتور احسان النص ص ١٣٨ طبعة دار الفكر دمشق ١٩٦٥م.

صياغتها شعراً هما السببان فى ذلك الضعف الأسلوبى وهذه الظاهرة وإن وجدت فى بعض نقائضه إلا أن هناك منها ما اتسم بالسهولة كما بينا. ولاغرابه فى ذلك فنبل الهدف وصدق الحديث يجعل الشاعر الإسلامى يتجه إلى تحقيقه فى شعره دون الاهتمام بما سواه وقد أشار إلى ذلك ابن الأثير فى قوله «يعنى أن الإجادة فى الشعر هو الافراط فى الذى يقوله وهو كذب يمنع الإسلام منه فلا يجئ الشعر جيداً»(١).

ظهور الأثر الإسلامى فى الصياغة بما اتسمت به من إيجاز مع العقوبة والبساطة فى التعبير:

نلاحظ أن مناقضاته مقطوعات صغيرة فى مجموعها اللهم إلا فى مناقضة واحدة بلغت تسع وأربعون بيتاً ولا تحتوى المناقضة على أكثر من غرض واحد ومما لا شك فيه أن الايجاز طابع يحظى بتقدير الفكر الإسلامى فهذا القرآن الكريم معجزة الفصاحة والبلاغة فى هذا الوقت يبلغ حد الروعة المذهلة فى غير كثير من الاسهام أو الاستدلال فيما لا يحتاج إليهما ومن الأمثلة التى استخدم فيها ألفاظ قليله تحتوى على معان كثيرة»(٢).

ومن ذلك قوله فى الرد على عمرو بن العاص فى يوم احد

ويوم بدر لقيناكم لنا مدد فيه مع النصر ميكال وجبريل
إن تقتلونا فديـن الحق فطرتنا والقتل فى الحق عند الله تفضيل

(١) أسد الغابة فى معرفة الصحابة لابن الأثير جـ ٢ ص ٥ طبعة دار الشعب ١٩٧٠م وانظر كذلك الموشح فى مأخذ العلماء للمرزبانى ص ٦٢ طبعة السلفية ١٣٤٣هـ والاستيعاب فى معرفة الأصحاب جـ ١ ص ٣٤٦ تحقيق محمد على البجاوى طبعة نهضة مصر.

(٢) الكامل فى للمبرد جـ ١ ص ٤.

ومنه قوله:

وفينا رسول الله نتبع أوامره		إذا قال فينا القول لا نتطلع

ومن حيث الصور والأخيلة البلاغية:

على الرغم من أن السمة الغالبة على معظم مناقضاته هى التخلى عن الصور الحية التى كانت معروفة مما قبل فى الجاهلية إلا أن ذلك لا يمنع أن ظهر الخيال فى بعض مناقضاته واتسم بالتدفق والحرارة فى إطار إجادة موهبته الشعرية للرد على الخصوم فقد رأينا الاستعارة الجميلة فى قوله:

قضينا من تهامة كل ريب		وخيبر، ثم أجمعنا السيوف[1]
نخيرها، ولو نطقت لقالت		قواطعهن: دوسا أو ثقيفا

ومن خياله الجميل واستعاراته البديعة قوله فى غزوة بدر

وعتبة وابنه خرا جميعا		وشيبة عضه السيف الصقيل

فقد شخص السيف وجعله يعض شيبه وينال منه ويهين كبرياءه ومنه قوله فى إطار شعرى جميل

فأتاك فل المشركين، كأنهم		والخيل تتقنهم - نعام سرد

وقوله فى تصوير السلاح فى المعركة

وقد عريت بيض خفاف، كأنها		مقاييس، يزهيها لعينيك شاهر

وهو تشبيه عريت فيه السيوف الحادة من أغمادها فإذا هى ملتمعة متألقه كأنها شعل من نار ومنه قوله أيضا.

بمذببات بالأكف نواهل		وبكل أبيض كالغدير مهند

(١) الديوان ص ٢٣٤.

فقد ظهر كل سيف اشترك فى المعركة براقاً متلالئاً كأنه الغدير الصافى.

ثانياً: السمات الفنية لمناقضاته فى المضمون:

«طوابع إسلامية» تتمثل فى

(١) صدور مناقضاته عن روح الإسلام

وقد كان صدورها عن روح الإسلام جعلها من أسمى الموضوعات بالأضافة إلى نبل الهدف والغاية التى قصدت إليها لأن موضوعاتها تنحصر فى الدفاع عن الاسلام ومبادئه والحرص على الرفع من شأنه وبث تعاليمه الدينية فى أبيات شعرية يتخللها الصور البيانية التى تأتى عفو الخاطر فتجسد وتشخص وتشبه وتكنى ويستعير كل ذلك بغية تأصيل الدين الاسلامى وترسيخ القيم الدينية ونشر العقيدة الإسلامية لتحقيق الغاية والهدف من ذلك وهو إخراج الناس من الظلمات إلى النور ومن الضلال إلى الهدى.

(٢) صدروها عن أحاسيس ومشاعر دينية:

لقد قام كعب بالرد على شعراء الكفار بمناقضات معانيها إسلامية مستمدة من الآيات القرآنية فوقف أمامهم يرد عليهم من منطلق قول صادق مؤيداً بالحجج والبراهين العقلية والمنطقية شارحاً من خلالها الأيات القرآنية ولقد استطاع كعب أن يرد على أكثر من شاعر فى أكثر من مناقضة فى وقت واحد ومن هنا فقد كان كعب اللسان المدافع بأقواله الصادقة والصائبة فى نفس الوقت ومن أشعاره التى اتضح منها تمسكه بالمعانى الإسلامية.

لنا حومة لا تستطاع يقودها نبيٌ أتى بالحق عف مصدق

ومن ذلك نرى تأثير الايمان فى مناقضات كعب حين يقول فى مواجهة الأحزاب وهزيمتهم أمام جيوش الإيمان واستمرارية الدين الإسلامى. فيقول عن الأحزاب

يذودوننا عن ديننا ونذودهم علينا ورامـوا ديننا ما نوادع
إذا غايظونا فى مقام أعاننا على غيظهم نصر من الله واسع
وذلك حفظ الله فينا وفضله علينا ومن لم يحفظ الله ضائع
هدانا لدين الحق واختاره لنا وللـه فوق الصانعين صنائع[1]

(٣) كانت بمثابة حرب نفسية للكفار من منطلق تأييدها للتعاليم القرآنية:

وقد رأينا ذلك فى مناقضاته ومنها قلب المعنى الذى قاله ضرار بن الخطاب[2] من أن النصر كان يفضل أبناء قريش من المسلمين لا بفضل الأنصار وقد شرحنا ذلك تفصيلاً فى ثنايا هذا البحث فكانت المناقضات بمثابة الحرب النفسية فقد هدمت معتقداتهم.

(٤) تعد مناقضاته وثيقة تاريخية لأحداث الغزوات التى قيلت فيها لما تتسم به من صدق فى سردها شعرياً:

تعتبر مناقضاته مادة صالحة لأن يتناولها المؤرخون للحديث عن المعارك والتى قيلت فى إطارها لما تتميز به من صدق فنى اتضح فى روايته لأحداثها.

(١) الديوان كعب ص ١٢٨.
(٢) الأبيات فى ص ٢٠٠، ٢٠١ من الديوان.

(٥) أضفى التأثير الإسلامى على مناقضاته سمات تتمثل فى ترتيب المعانى وتسلسل الأفكار وترابطها وأنه بذلك حقق ما لم يك موجوداً فى العصر الجاهلى:

وقد اتضح ذلك فى مناقضته التى قالها فى إجلاء بنى النضير وقد بدأ المناقضة بأبيات[1] يوضح فيها إجلاء بنى النضير وقتل كعب بن الأشراف ويتحدث عن علاقتهم بالنبى صلى الله عليه وسلم بداية الجدال الذى حدث حين دعاهم للإسلام ثم يأتى بعد ذلك بأبيات توضح سبب كفرهم ثم يفصل ما حدث بعد ذلك تفصيلاً مرتباً بدءاً من قتل شاعرهم كعب ثم يذكر كيف تم التدبير لقتله وقتله وهكذا كان الترتيب فى المعانى وتسلسل الأفكار واضح حيث تتبع قصة بنى النضير مع الرسول صلى الله عليه وسلم فى سرد تاريخى مدعم بالرؤية الإسلامية المنبثقة عن التأثير الإيمانى الذى جعله يظهر قوياً أمام حقد الكفر.

- كان لمناقضاته الفضل فى تفسير الآيات القرآنية بمعانى قريبة إلى كافة المستويات العقلية:

وقد ظهر ذلك بوضوح فى مناقضاته حيث استطاع بقربة من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأخذ من القرآن ما يقوى به شعره ويؤكد معانيه ونظمه فكان القرآن مدداً له فى مناقضاته وزاد لغوى. فكانت مناقضاته أداه من أدوات الحرب اللسانية بما تضم من ذخيرة كلامية يصم بها آذان الأعداء فيفقدهم صوابهم ويضل سعيهم نحو المؤمنين ومن هنا تعد مناقضاته لا تقل خطراً عن قيادة الجيوش المحاربة فالمناقضة تعد سلاحاً دفاعياً عن المسلمين ولولا تأثر كعب النفسى بمقومات الدين الإسلامى ما وقف هذا الموقف من

(١) الأبيات فى الديوان ص ٢٠٣.

قريش منددا بهم ومرحبا بقيادة الرسول للإسلام وللمسلمين.

من حيث التصوير الفنى

مناقضات كعب كانت رؤيته للتصوير الفنى فيها ضربا من الرد على الخصم من الشعراء الكفار وذلك من منطلق الحمد والتسبيح لله عز وجل[1].

ومن هذا المنطلق جاء التصوير الفنى الذى تخلل مناقضاته من فطرى لأنها كانت تقال فى إطار الرد أو التبصير بالحرب فأتت عفو الخاطر مشبعة بالروح الاسلامية ومنها قوله:

وأشياع أحمد إذا شايعوا على الحق ذى النور والمنهج[2]

فاستعاراته لصورة النور يعبر بها عن هداية الحق التى جاء بها الإسلام ولقد ذكر النور كثيرا فى كتاب الله عز وجل.

وعلى الجملة يمكننا أن نستخلص مما سبق أهداف مناقضات كعب ابن مالك فى زمانها وما أعقبه من أزمان على مر التاريخ والأيام وذلك لما كان لها من فضل فى إفهام الناس لما حدث فى الغزوات فى صورة بسيطة صادقة مطبوعة دون زخرف أو زينة فى معظمها مما تحقق فيها عنصر الصدق وحرارة التعبير والقدرة على التأثير بما حوته من سماحة طبع قائلها وعاطفته الفياضة نحو مناصرة الإسلام والمسلمين بالإضافة إلى سمو التعبير دون إلحاح على تصوير بيانى دقيق أو تصيد لتشبيه أو إتيان باستعارة متعسفة وإنما أتت مناقضاته بتعبير بسيط، عفو الخاطر.

ومما لا شك فيه إن هذه الميزات الفنية التى تميزت بها مناقضاته هى من إطار الفكر الإسلامى العام ومن ظروف الغزوات التى قيلت فى ظلالها.

---

(١) مدخل إلى نظرية الأدب الاسلامى ص ٥٠.

(٢) الديوان ص ١٨٧.

المراجع والمصادر

(١) أدب صدر الاسلام للدكتور واضح الصمد الطبعة الأولى ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع بيروت - لبنان.
(٢) أسد الغابة فى معرفة الصحابة لابن الأثير - المكتبة الاسلامية بطهران وطبقة دار الشعب ١٩٧٠م.
(٣) إمتاع الأسماع للمقريزى لجنة التأليف والترجمة والنشر.
(٤) البداية والنهاية لابن كثير.
(٥) التأثير النفسى للاسلام فى الشعر للدكتور عبد الرحمن محمود زلط الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ دار اللواء المملكة العربية السعودية.
(٦) التحفة اللطيفة فى تاريخ المدينة الشريفة للسخاوى نشر أسعد طرابزونى ط ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.
(٧) الجرح والتعذيب لابن حاتم الرازى طبعة حيدر آباد الدكن ١٣٧١هـ - ١٩٥٢م.
(٨) الحيوان للجاحظ تحقيق عبد السلام هارون.
(٩) الدرر فى إختصار المغازى والسير لابن عبد البر طبعة القاهرة ١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م.
(١٠) السيرة النبوية لابن هشام دار الجبل بيروت ١٩٧٥م.
(١١) الشعراء المخضرمين وأثر الاسلام فيهم للدكتور يحيى الجبورى مؤسسة الرسالة الطبعة الثانية ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

(١٢) الشعر العربى من الجاهلية حتى نهاية القرن الأول الهجرى للدكتور محمد مصطفى هداره طبعة دار المعارف بمصر ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

(١٣) الشعر والشعراء لابن قتيبة تحقيق محمود شاكر طبعة دار المعارف ١٩٦٦م.

(١٤) الطبقات الكبرى لابن سعد دار بيروت للطباعة والنشر ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م.

(١٥) العصبية القبلية وأثرها فى الشعر الأموى تأليف إحسان النص دار الفكر ط ثانية ١٩٧٣م.

(١٦) العصر الجاهلى لشوقى ضيف طبعة دار المعارف الطبعة السابعة.

(١٧) العصر الاسلامى للدكتور شوقى ضيف الطبعة السابعة دار المعارف بمصر.

(١٨) العقد الفريد لابن عبد ربه طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م.

(١٩) العمدة لابن رشيق القيروانى تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد طبعة حجازى القاهرة ١٩٣٤م.

(٢٠) الفائق فى غريب الحديث للزمخشرى طبعة البابى الحلبى.

(٢١) القاموس المحيط.

(٢٢) الكامل فى التاريخ لابن الأثير دار الكتاب العربى ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م.

(٢٣) المزهر فى علوم اللغة للسيوطى طبعة عيسى البابى الحلبى.

(٢٤) المغازى للواقدى طبعة عالم الكتب بيروت.

(٢٥) الموشح للمزربانى المطبعة السلفية ١٣٤٣هـ.

(٢٦) الأدب الاسلامى فى عهد النبوة وخلافه الراشدين للدكتور نايف معروف دار النفائس الطبعة الأولى ١٤١٠هـ - ١٩٨٠م.
(٢٧) الأدب فى موكب الحضارة الاسلامية للدكتور مصطفى الشكعة.
(٢٨) الاستبصار فى نسب الصحابة من الأنصار موفق الدين المقدس دار الفكر ١٣٩١هـ - ١٩٧٧م.
(٢٩) الاستيعاب فى معرفة الأصحاب لابن عبد البر طبعة السعادة ١٣٢٨هـ.
(٣٠) الاصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر العسقلانى طبعة السعادة ١٣٢٨هـ.
(٣١) الأعلام للذركلى الطبعة الثالثة.
(٣٢) الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى طبعة دار الكتب.
(٣٣) تاريخ الأدب العربى لعمر فروخ دار العلم للملايين - بيروت - الطبعة السادسة ١٩٩٢م.
(٣٤) تاريخ الأدب العربى كارل بروكلمان ترجمة عبد الحليم النجار طبعة دار المعارف ١٩٦٨م.
(٣٥) تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام تحقيق حسام الدين المقدسى.
(٣٦) تاريخ العرب قبل الاسلام للدكتور جواد على طبعة بغداد مطبعة المجمع العلمى العراقى ١٣٧٥هـ - ١٩٥٦م.
(٣٧) تاريخ الطبرى دار سويدان بيروت - مكتبة خياط بيروت.
(٣٨) تاريخ النقائض فى الشعر العربى للأستاذ أحمد الشايب نشر مكتبة النهضة المصرية الطبعة الثالثة ١٩٩٣م.
(٣٩) تاريخ النقد الأدبى عند العرب لطه أحمد ابراهيم طبعة دار الحكمة بيروت - لبنان.

(٤٠) تحفة الأشراف بمعرفة الأطراف مع النكت، الظراف للحافظ المذى تعليقات ابن حجر.
(٤١) تهذيب الأسماء واللغات للنووى دار الكتب العلمية بيروت – لبنان.
(٤٢) تهذيب التهذيب لابن حجر طبعة حيدر آباد الدكن ١٣٧١هـ – ١٩٥٢م.
(٤٣) جمهرة أنساب العرب لابن حزم الأندلس طبعة دار المعارف.
(٤٤) جوامع السيرة لابن حزم تحقيق إحسان عباس وناصر الدين الأسد.
(٤٥) حسان بن ثابت تأليف الدكتور احسان النص طبعة دار الفكر دمشق ١٩٦٥م.
(٤٦) خلاصة تذهيب تهذيب الكمال فى أسماء الرجال للأنصارى طبعة بولاق ١٣٠١هـ.
(٤٧) دراسات فى أدب ونصوص العصر الاسلامى.
(٤٨) دراسات فى الأدب الاسلامى للدكتور محمد خلف الله طبعة القاهرة لجنة التأليف ١٩٤٧م.
(٤٩) دراسات فى نصوص العصر الاسلامى للدكتور محمد عبد القادر أحمد الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ – ١٩٨٦م مكتبة النهضة المصرية.
(٥٠) ديوان كعب بن مالك الانصارى تحقيق سامى مكى العانى ط أولى مطبعة المعارف بغداد ١٣٨٦هـ – ١٩٦٦م.
(٥١) سير أعلام النبلاء للذهبى إشراف شعب الأرنؤوط مؤسسة الرسالة بيروت ١٤١٢هـ – ١٩٩٢م.
(٥٢) شذرات الذهب فى أخبار من ذهب لابن العماد بيروت.
(٥٣) شعراء حول الرسول للدكتور عبد الله بن محمد أبو داهش ط أولى ١٤١٧هـ – ١٩٩٧م إصدار نادى المنطقة الشرقية الأدبى السعودية.

(٥٤) شعر الدعوة الاسلامية فى عهد النبوة والخلفاء الراشدين للدكتور عبد الله الحامد طبعة الرياض ١٣٩١هـ - ١٩٧١م.

(٥٥) شعر الفتوح الاسلامية فى صدر الاسلام للدكتور النعمان عبد المتعال القاضى الدار القومية للطباعة والنشر.

(٥٦) شعر النقائض فى السيرة النبوية تأليف شوقى أحمد ط أولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م.

(٥٧) صحيح البخارى المكتبة الاسلامية باستانبول ١٣١٥هـ - ١٨٩٧م توزيع مكتبة العلم جدة ١٤٠٢هـ - ١٩٨١م.

(٥٨) صحيح مسلم دار إحياء التراث العربى بيروت - لبنان.

(٥٩) عيار الشعر لابن طباطبا تحقيق طة الحاجرى ومحمد زغلول سلام طبعة القاهرة ١٩٥٦م.

(٦٠) فى الأدب الاسلامى المعاصر للدكتور محمد حسن بريغش مكتبة الحرمين الرياض البطحاء ط أولى ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

(٦١) فى الشعر الاسلامى والأموى للدكتور عبد القادر القط دار النهضة العربية بيروت ١٩٧٩م.

(٦٢) فتح البارى بشرح صحيح البخارى لابن حجر المكتبة السلفية ١٣٨٠هـ.

(٦٣) فضائل الصحابة لأحمد بن حنبل مؤسسة الرسالة.

(٦٤) كعب بن مالك الانصارى للدكتور محمد على الهاشمى ط أول ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

(٦٥) كعب بن مالك الصحابى الأديب المكتبة الصغيرة تأليف أ/ عبد العزيز الرفاعى.

(٦٦) لسان العرب لابن منظور طبعة بولاق.

(٦٧) مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة دار الارشاد بيروت.
(٦٨) مسند الامام أحمد ابن حنبل المطعبة الميمنية مصر ١٣١٣هـ.
(٦٩) معجم الشعراء للمرزبانى طبعة عبد الستار أحمد فراج.
(٧٠) موسيقى الشعر للدكتور ابراهيم أنيس ط خامسة مكتبة الأنجلو ١٩٧٨م.